# كلاسيكيات . . . .

مجموعة قصصية للكاتب: سمير محمد عالم

الطبعة الأولى
2023

كلاسيكيات

**الطبعة الأولى ٢٠٢٣**

**ISBN: ٩٧٨٩١٨٩٢٨٨٦٦٩**

**الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية:**

**٣٦-١٧ ٢٥-٠٤-٢٠٢٣**

**الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم**

**السويد، فاستراء جوتالند**

**البريد الإلكتروني:**

**digitizethearabicbook.com**

**© جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.**

**إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى**

# كلاسيكيات

**مجموعة قصصية للكاتب**
**سمير محمد عالم**

**الطبعة الأولى**
**٢٠٢٣**

## المحتويات


مسك وكير _____ ٦

سيرة الحب _____ ٣٦

دمى لا تبتسم _____ ٥٩

دوفا _____ ٧٧

أحلام الصراصير _____ ٩٦

ثقوب الذاكرة _____ ١٠٨

البحر _____ ١٢٠

اللحن الخالد _____ ١٣٠

المحطة الأخيرة _____ ١٣٦

راديو _____ ١٥٢

# الإهداء

**إلى ابني عبدالإله**

**كنت دائماً سعادتي منذ أن وهبك الله لي**

**وسأورثك قيمي وأفكاري وأحلامي**

**فأختر لنفسك ما طاب منها**

**وعش الحياة بجمالها وواجه قسوتها**

**وكن رجلاً.. يحق لي أن أفخر به.**

# مِسك.. وكير

نعيش في عالم مليء بالتناقضات والأفكار المتصادمة، وكلاً ينظر إلى الحياة من منظور مختلف، يتوافق وقناعاته التي يؤمن بها، فالجمال والقبح قد يكون أمراً نسبياً ونقطة اختلاف، بينما الخطأ والصواب مسألة تخضع لمبادئ دقيقة، ومجال الاختلاف فيها ضيق للحد الذي ينتفي معه النقاش.

حين تعيش في هذا العالم وتتبنى المبادئ السامية، حتماً ستعيش في زاوية تحشر نفسك فيها؛ لتبتعد عن كل ما قد يلوث ذلك النقاء، والعالم الجميل الذي يحيا بداخلك؛ لتشيد لنفسك مدينتك الفاضلة داخل عقلك الباطن، ومن ثم تغلق أبوابها لتمنع المخربين المحتملين من الولوج إليها، وتدمير كل تلك المثاليات.

يوسف هو بطل قصتنا، وهو رجل في منتصف العقد الرابع من العمر، توفيت زوجته التي كانت تمثل له الحياة منذ سنوات، وتركت له طفلان، هما أمل وتوفيق، واللذان لا يزالا في مرحلة تعليمهم الابتدائي.

لديه كشك صغير لبيع الكتب في أحد الأحياء الشعبية، تلك البيئة التي تعج بالأحداث، وتفرض على أفرادها الاحتكاك والتفاعل المباشر.

لكن يوسف حاول دائماً أن يبتعد عن هذا العالم الذي يتناقض مع رؤيته للحياة، وآثر أن يحتمي خلف أسوار كشكه الذي يعج بالكتب، واتخذها كقلعة تصد عنه كل القيم المخالفة له؛ ليبقيها بعيداً عنه، ومكتفياً بنافذة صغيرة ينظر من خلالها إلى الخارج، ولا يرغب بأن تتسع لأكثر من ذلك؛ كي لا يشاهد المزيد من تفاهات هذا العالم.

يقضي وقته طوال اليوم جالساً داخل الكشك، يقرأ الكتب، ويتفاعل من زبائنه بكل حب ومودة، لأنه يدرك بأن فئة القرّاء هي فئة متميزة دائماً، وتستحق منه الاحترام، وهي فئة تعيش بالتأكيد بأسلوب مشابهه لأسلوبه في الحياة، وتعيش وتشعر بنفس معاناته.

مقابل الكشك يقع محل لبيع (الكاسيتات) يديره علاء، وهو شاب يتسم بكثير من السطحية، ولا يملك أي هدف واضح في الحياة، وثقافته لا تتجاوز معرفته بالأسماء اللامعة في مجال الأغاني الشبابية، والمحل يدخل إليه العديد من الزبائن طوال اليوم.

يتردد علاء على كشك يوسف بين الحين والآخر للتنمر والاستهزاء بيوسف وأفكاره، وكما يعتقد من وجهة نظرة بأن يوسف هذا شخص غريب الأطوار، وشخصية معقدة، وربما مجنونة إلى حد ما.

توجه يوسف عدة مرات لمحل (الكاسيت) الذي يديره علاء، طالباً منه أن يقوم بخفض صوت الموسيقى التي تنبعث من محله طوال الوقت، محدثة ضجيجاً في المكان، لأن تلك الموسيقى لا تزيد عن كونها مجرد إيقاعات صاخبة؛ تستفز المستمع إليها للرقص ليس إلا، ولكن علاء رفض طلبات يوسف المستمرة معللاً ذلك بأنه نوع من الترويج لمحله، وفي النهاية استسلم يوسف، وحاول التأقلم مع كل ذلك الإزعاج الذي كان بالتأكيد يشتت تركيزه عن القراءة.

في صباح أحد الأيام تقدم علاء نحو كشك يوسف

وألقى عليه تحية الصباح، فرد عليه يوسف التحية بأسلوبه الهادئ المعروف عنه، وكالعادة كان علاء يحمل في يده حفنة من (الفصفص) والذي لا يكف عن تناوله وبصق قشوره في كل مكان.

هذا التصرف كان يثير أعصاب يوسف باستمرار، ويعتبر بصق القشور بهذا الشكل تصرف غير لائق، فبادره بالقول: **"طلبت منك لعدة مرات أن تكف عن بصق قشور (الفصفص) أمام كشكي، وها أنت تفعل ذلك مجدداً"**.

فرد عليه علاء: **"اليوم مزاجك سيء من الصباح كالعادة"** واستمر في تناول (الفصفص) حتى أنهى الكمية التي كانت بيده، وبدأ بالبحث في جيب بنطلونه، علّه يجد المزيد منه.

نظر إليه يوسف وسأله: **"هل تريد المزيد؟"**

رد علاء: **"نعم"** وبأسلوب ينم عن استهزاء سأله؛ إن كان يوسف بدأ ببيع (الفصفص) في الكشك للتعويض عن انخفاض مبيعاته؟!.

أجابه يوسف: **"نعم، أبيع (الفصفص) ولكنه من نوع مختلف"**

تعجب علاء، وطلب من يوسف بإلحاح أن يعرض عليه هذا (الفصفص) المختلف، فربما يكون نوعاً أفضل من النوع الذي اعتاد على تناوله.

رد عليه يوسف: **"إنك لا تكف أبداً عن تناول حبات (الفصفص) ولا عن حملها في جيبك.. تخرج تلك الحبات وتقوم بتقشيرها بأسنانك وتبصق قشورها في كل مكان لتبتلع اللب.. أما (الفصفص) الذي أقوم أنا ببيعه؛ أقشره بهذه الطريقة"** وتناول يوسف أحد الكتب التي بجانبه، ومثل له عملية التقشير التي يقصدها، وأكمل **"واستخرج لبه ولكن لأغذي به عقلي"**.

نظر إليه علاء وقال: **"لا تكف عن الكلام بطريقة لا أفهمها، وتقول كلاماً غريباً!"**

ثم واصل كلامه قائلا: **"لا أدري ما لذي يجعلك تتمسك بهذه المهنة التي لا تدر عليك الكثير.. فأنت تبيع بضاعة كاسدة لا سوق لها.. أنصحك أن تحول نشاط الكشك لبيع (السندوتشات) والعصائر، ألا تلاحظ الفرق بين عدد الزبائن الذين يترددون على محلي يومياً وعدد زبائنك!؟"**

تجاهل يوسف كل ذلك الكلام، والتفت إلى الكتاب الذي يمسكه بيده، وواصل القراءة.

وأدار علاء ظهره وعاد إلى محله، وقام برفع صوت الموسيقى.

انحنى يوسف قليلاً ليتمكن من الرؤية من خلال شباكه الصغير؛ ليرى علاء داخل المحل يتمايل ويتراقص على ترددات تلك الإيقاعات.

فجأة ارتفعت الأصوات في الشارع، ونشب شجار بين الباعة في الحارة، مما أزعج يوسف، فقام بإغلاق شباكه الصغير.

حل الليل.. وباشر يوسف في إغلاق الكشك، وعاد إلى منزله الصغير الذي يسكنه مع أبناءه، وبمجرّد دخوله؛ اندفع نحوه أبنائه وقاموا باحتضانه وتقبيله، فسألهم: **"هل أنهيتم واجباتكم المدرسية؟"**

أجابت أمل بأسلوبها المشاغب؛ بانها أنهت كل واجباتها.

فنظر نحو ابنه توفيق وسأله **"وماذا عنك؟"**

فأشار بيده بانه قد أنهاها.

توجه يوسف نحو المطبخ ليقوم بأعداد وجبة العشاء له ولأبنائه، وبعد الانتهاء من تناول الوجبة؛ توجه إلى فراشه، وأسند ظهره المنهك إلى السرير، ونظر نحو برواز الصورة الذي يضعه بجوار سريره، منذ أن رحلت زوجته عن هذه الحياة.

أمسك البرواز بيده، وتأمل الصورة التي التقطت في آخر عيد جمعهم سوياً، تلمّس بيده ملامح زوجته التي كان يراها كالملاك، وأحبها للحد الذي فقد معه لذة الحياة من بعد رحيلها.

ضل يوسف يتأمل الصورة، ويسرح قليلاً مع تلك الذكريات؛ حتى غلبه النعاس، ونام على تلك الحال.

انتقل إلى عالم آخر، يمكن من خلاله فقط، أن يشعر بوجود حبيبته إيمان بجواره، هنا في الأحلام فقط؛ يمكنه أن يكلمها، ويسمعها، ويشكو لها كل ما يشعر به من الألم والتعب.

تخيلها وهي تخرج من داخل ذلك الإطار، وتحدثه وتقول له: **"تماسك.. أنا أعرف بانك قوي"**

أجابها يوسف: **"لقد تعبت وحدي يا إيمان.. وافتقدك كثيراً"**

ردت عليه إيمان: **"لقد انتهى وقتي.. وكان لابد علي أن أرحل"**

أجابها يوسف: **"ولكن أنا والأولاد بحاجتك"**

إيمان: **"أنا أثق بقدرتك على العطاء والحب.. وأنت قادر على أن تمنحهم كل الحب الذي هم بحاجة إليه"**

استيقظ يوسف فزعاً من صوت منبه الساعة الذي كان يشير إلى السادسة صباحاً، وهو موعد استيقاظ أبناءه.

توجه إلى غرفتهم، وأخذ بإيقاظهم بنفس الأسلوب الذي عودهم عليه، بأن يحتضنهم ويقبلهم، ويمسح على رؤوسهم حتى يستيقظوا.

استيقظت أمل من نومها كالعادة وهي تتذمر من الاستيقاظ باكراً، ومن ثم توجه نحو توفق حتى نهض.

أوصل أبناءه الى المدرسة، وتوجه لفتح الكشك كما يفعل في كل صباح.

فتح شباكه الصغير، وأخرج كيس الحبوب، وتوجه نحو الساحة التي بجوار الكشك، وبدأ في نثر الحب ليطعم الحمام،

ويستمتع بمنظرهم وهم يتناولونها، سقى أزهاره التي زرعها حول الكشك، ثم عاد إلى الداخل؛ وأعد لنفسه فنجان القهوة، وجلس يتأمل المارة من خلف النافذة.

إنه روتين يومي اعتاد عليه، ويكره كثيراً التغير فيه، وعلى أي حال؛ فكثير من الوسائل التي قد تبدوا وسائل ترفيه للآخرين؛ لا يشعر يوسف بالانجذاب نحوها، فنمط الحياة الهادئ هو ما يبحث عنه.

مرّ وقت قصير، وحظر علاء لفتح محل(الاستريو) وقام على الفور بتشغيل الموسيقى المزعجة في المحل، وبعدها أقبل على يوسف ليلقي عليه التحية الصباحية، ويمارس هوايته بالتنمر عليه.

ويوسف يتأمل تقدمه من خلال شباكه الصغير.

وأثناء عبوره للشارع؛ توجهت نحوه مركبة مسرعة، وكادت أن تصطدم به، ولكنه تمكن من النجاة بنفسه، والتفت علاء نحو سائق السيارة وقام بتوبيخه، ونشب شجار، وارتفعت الأصوات، فاغلق يوسف شباكه مجدداً.

كانت تلك الأحداث تتكرر برتابة طوال سنوات، وقد تصيب الكثيرين ممن يبحثون عن الإثارة بالملل الشديد، وقد يصفونها بأنها حياة لا حياة فيها.

ولكن الحياة دائماً ما تكون لها أوجه متعددة، وتختلف ملامحها وفق الزاوية التي ينظر كل فرد منا لها.

وبالنسبة إلى يوسف فكل تلك السنين العابرة، ما هي سوى طريق يوصله إلى الهدف، واستكمال رسالته في الحياة، والتي اختصرها في تربية أبناءه.

**مرت عدة سنوات**

وفي مساء أحد الأيام، لمح يوسف تقدم علاء نحوه، وحين وصل القى عليه التحية، وقال: **"جئت أبلغك بأنني قررت أن أقفل المحل"**

فتعجب يوسف، وتسائل عن السبب؟

قال علاء: **"لقد كسد سوق (الكاسيتات) ولم تعد المبيعات كسابق عهدها، فالقنوات الفضائية وإذاعات (الراديو FM)**

**انتشرت وتبث الأغاني على مدار الـ ٢٤ ساعة، ولم يعد أحد رغب في شراء الكاسيت"**

فسأله يوسف: **" وما هي خطتك التالية؟"**

رد علاء: **"أنوي فتح محل لبيع زينة السيارات، فلها سوق رائجة"** وبدأ يسرد له بعض الأمور التي يرغب فيها الشباب، ويوسف يستمع إليه دون أن يفهم معنى تلك التسميات.

فباغته يوسف بالسؤال: **"أ تنوي فتح المحل هنا أيضاً!"**.

ضحك علاء من الطريقة التي كان يوسف يسأل بها، ورد عليه: **"لا.. سأريحك مني لا تقلق، وسأنتقل لموقع آخر"**

استمر الحديث بين الاثنين لبعض الوقت، حتى وصلت إحدى سيارات النقل، ليبدأ علاء في إفراغ المحل من محتوياته.

وأخيراً ارتاح يوسف من ذلك الجار المزعج، والذي اعتاد منذ سنوات على إزعاجه متى سنحت له الفرصة بذلك، ورغم محاولات يوسف العديدة لإنعاش الدماغ التي مارسها معه، إلا أنه لم يفلح في ذلك.

رحيل علاء من الحارة؛ لم يكن ليشكل فارقاً كبيراً، باستثناء اختفاء صوت الموسيقى الصاخبة التي كان يبثها في المكان.

ولكن الضوضاء والصخب الذي كان يعم المكان ضل مستمراً كما كان دائماً، والأسباب التي تؤدي للشجار والتعارك بين الباعة أو سكان الحي لا تزال موجودة، وإن كانت تحصل في أغلبها لأتفه الأسباب.

**بعد مرور عدة أسابيع**

في مساء أحد الأيام، لاحظ يوسف وجود أشخاص أمام محل علاء المغلق، فأدرك بأن هناك من يرغب في استئجار المحل.

وبالفعل بعد أيام قليلة، تم افتتاح مكتب للسفر والسياحة، ومن خلال السيارة التي يستقلها صاحب المكتب يمكن الحكم عليه بأنه رجل ميسور الحال إلى حد ما.

كان يوسف يتابع من خلال شباكه الصغير ذلك الرجل في ذهابه وإيابه، وكانت تظهر عليه بوضوح سمات الغطرسة، واعتاد على أن يوبخ عامله البسيط الذي يقوم بغسل السيارة له يومياً، ولكن ما كان يثير ضحك يوسف؛ هو عندما يرى أحد السيارات

الفارهة تتوقف أمام المكتب، ويخرج ذلك المتغطرس من مكتبه راكضاً لاستقبال الزبون، حين يظهر عليه بأنه يفوق صاحب المكتب ثراء.

كان يضحك على ما يراه من تذلل وخضوع ذلك المتغطرس للأكثر ثراء منه، في حين يقوم بالتعالي على العامل البسيط.

ولكن المواقف التي تثير ضحك يوسف لم تتوقف عند هذا الحد؛ بل أن ابن صاحب المكتب اعتاد على الحضور إلى مكتب والدة راكباً دراجته النارية، والتي كانت تحدث ضجيجاً عالياً في كل مرة يحضر فيها، وفي كل مرة يأتي فيها يخرج مطروداً من المكتب، ويخرج الوالد خلفه ليكيل له الشتائم.

وفي أحد الأيام تكرر نفس الموقف، وسمع يوسف صوت الدراجة النارية تتوقف أمام المكتب، ونزل ذلك الشاب الذي يبدوا عليه من مظهره الاستهتار، وكان حسين صديق يوسف جالساً في الكشك، فبدى على حسين انزعاجه من صوت الدراجة النارية، فقال له يوسف: **"انتظر قليلاً، وسوف تراه يخرج من المكتب غاضباً ومطروداً، ويلحق به والده إلى الشارع ليكمل توبيخه"**

فسأله حسين باستغراب: **"وهل هذا الشاب ابن صاحب المكتب؟"**

فأجاب يوسف: **"نعم"**

ثم قال يوسف: **" لقد مرت عدة سنوات على تواجد هذا الشخص هنا، ولا زالت أجهل اسمه.. ولم يحاول ولو لمرة واحدة أن يأتي إلى الكشك، أو حتى أن يلقي علي التحية من بعيد"**

فأجابه حسين: **"هو شخص تبدو عليه علامات الغرور بشكل واضح"**

وما هي إلا لحظات، ويتكرر نفس المشهد، وخرج الشاب مسرعاً من المكتب، ووالده خرج خلفه، وأخذ في شتمه.

كانت الحياة تشهد تطوراً كبيراً ومتسارعاً دون توقف، بحيث كان الجيل الذي ينتمي إليه يوسف جيلاً مميزاً، شهد على ذلك التغيير السريع، والانتقال من شكل الحياة السابق بطابعها البسيط، إلى حياة عصرية، فيها الكثير من التعقيد.

وبهرجة بعض الأمور المحدثة في الحياة، كانت بالنسبة له

مجرّد ابتكارات، منها ما هو مفيد، ومنها ما لا يمثل قيمة فعلية من وجهة نظره، وقيمتها تكون حقيقية حين تنشأ الحاجة إليها، بحيث لا تجعل منه شخصاً مهووساً بمجرد التغيير.

**هكذا سارت السنين وكبر يوسف قليلاً وبدأت آثار التقدم في العمر تظهر على ملامحه.**

استيقظ يوسف في صباح أحد الأيام، واستقل سيارته ليوصل ابنته أمل إلى المستشفى، فهذا هو أول يوم عمل لها، بعد أن أكملت دراستها في كلية الطب، وتخرجت.

توقف يوسف بسيارته أمام بوابة المستشفى، ونظر إلى أمل، ووجهها يشرق بابتسامة كبيرة، تنم عن سعادتها، وتحقيقها أخيراً هذا الحلم، ولكن لا تخلو لغة جسدها إلى ما يشير إلى مدى شعورها بالتوتر.

نظرت نحو والدها فقال لها: **"تفضلي بالنزول يا دكتورة أمل"**

ضحكت أمل وقالت: **"الآن، سأخطو أولى خطواتي نحو المستقبل، ولكني لن أنسى الأمس، الذي كنت فيه**

**أنت وحدك يا أبي، وحدك.. تسعى لتصنع هذا المشهد، الذي نعيشه هذه اللحظة"**

ومن ثم قبلت يد والدها، وأخذت نفساً عمياً، وتوجهت نحو بوابة المستشفى، ويوسف يتأمل ابنته بكل سعادة وفخر، وهي ترتدي البالطو الأبيض.

توقفت أمل للحظة، والتفتت نحو والدها، ولوحت له بيدها مودعة.

وصل يوسف إلى كشكه، ومارس طقوسه اليومية؛ من إطعام الحمام، وسقي الزهور، وإعداد فنجان القهوة، وسمع صوت مركبة تتوقف أمام مكتب السفريات، فنظر من خلال الشباك؛ ورأى صاحب المكتب ينزل من سيارة مختلفة هذه المرة، فاستغرب أنه يستقل سيارة أخرى ذات نوعية عادية، ومن ثم تذكر أنه بحاجة لتغيير حافظة جهازه النقال، فتوجه إلى المحل القريب، وطلب من البائع أن يعطيه حافظة جديدة.

تبسم البائع بطريقة تنم عن سخريته من قدم موديل الجوال الذي كان يحمله يوسف.

وقال البائع: **"هذا جهاز قديم وبطلت موضته، ولن تجد له أي مستلزمات الآن"**

سأله يوسف: **" وما ذا أفعل؟.. هل أرميه!"**

رد البائع: **"استبدله بجهاز حديث.. واكب الموضة يا عم يوسف"**

استأذنه يوسف لدقائق، وعاد إلى كشكه، وأخذ يبحث بين الكتب عن كتاب معين، تناوله وعاد مسرعاً نحو البائع وناوله الكتاب، ثم قال: **"هذا كتاب (كليلة ودمنه) يبلغ عمره الآن ١٦٠٠ عام.. ولايزال الناس يقرأون هذا الكتاب.. ولم ولن تبطل موضته.. خذه إنه هدية مني لك".**

تمسك يوسف بكل عاداته التي مارسها طوال حياته، فحتى بعد أن تعينت ابنته الدكتورة أمل في المستشفى، كان يصر على أن يوصلها بنفسه إلى عملها صباح كل يوم، وكانت أمل تطالبه بأن يسمح لها بأن تتدبر مسالة مواصلاتها بنفسها، ولا داعي لأن يرهق نفسه بذلك، ولكن يوسف كان يرفض ويقول لها: **"لقد اعتدت طوال سنوات على إيقاظكم من نومكم بنفسي، وأن أعد لكم وجبة الإفطار، وأوصلكم إلى مدارسكم..**

**والآن بعد أن أصبحتِ طبيبة؛ ترغبين في حرماني من ذلك الشعور الذي يمنحني السعادة، وأنا أراقبك صباح كل يوم وأنتِ تدخلين إلى المستشفى مرتدية البالطو الأبيض!"**

وتابع قائلاً: **"ستدركين معنى هذا الشعور حين ترزقين بأطفال، وتفنين عمرك وأنتِ تحاولين زرع كل شيء جميل في نفوسهم، وتنتظرين أن يكبروا لتشاهدي ثمار ما غرستيه فيهم.. وأنا الآن أنتظر بفارغ الصبر تخرّج توفيق كذلك"**

كانت رسالة يوسف في الحياة توشك أن تكتمل، وهذا الشعور كان يمنحه الإحساس بالراحة.

فالحياة بالنسبة إليه كانت مرهقة وقاسية، وأكثر ألم رافقه طوال سنوات، كان فقدانه لزوجته إيمان في وقت مبكر من حياته.

وذلك قد يعني الكثير، لشخص كان يعتبر المنزل وزوجته وأبناءه السعادة الأكبر في حياته، ومصدر الأمان.

**وبعد مرور عدة أشهر**

في صباح أحد الأيام جاء صديقه حسين لزيارته بالكشك، وجلسا سوياً لتناول القهوة، ولكن الارتباك كان بادياً على يوسف، وكان ينظر إلى ساعته باستمرار، إلى أن لاحظ أن ساعته لم تكن تشير إلى الوقت الصحيح، فسأل حسين كم الساعة الآن؟ فأجابه بانها العاشرة والنصف صباحاً، حينها أدرك يوسف بأن ساعة يده لم تكن تعمل بشكل صحيح وأنها متقدمة عن الوقت الأصلي، وطلب من حسين أن ينتظر في الكشك، لحين ذهابه لمحل إصلاح الساعات وعودته.

مر وقت قصير، وجاء توفيق مرتدياً زي كابتن طائرة، وخلفه اثنين من أصدقائه.

تقدم نحو حسين وقبل رأسه، وسأله عن والده، فرد عليه حسين بأنه ذهب منذ قليل، وسوف يعود الآن.

التفت توفيق إلى أصدقائه وقال لهم: **"هذا هو الكشك الذي كان والدي يكدح فيه لسنوات، وينفق علينا مما يجنيه منه.. حتى يصنع مني ما أنا عليه الآن"**

فقاطعة حسين قائلاً: **"لا يا بني، من رباك ليس المال الذي جناه والدك من بيع الكتب في هذا الكشك، من رباك هي حكمة والدك"** وأشار بيده الى رأسه، ثم تابع حديثه **"والدك لم يترك كتاباً في هذا الكشك إلا وقرأه.. أنا أكبر منك سناً وخبرة بالحياة.. وعلى أي حال فوالدك لم يكن يجني الكثير من عمله هذا.. ولكنه تمكن من الاستمرار والصمود طوال تلك السنوات"**

في هذه اللحظة عاد يوسف، ووجد توفيق يقف أمامه منتصباً، مرتدياً زيه الرسمي.

نظر إليه يوسف، وانسابت دموع الفرح من عينيه، واحتضن توفيق بقوة، وهنئه على التخرج.

ياله من شعور كان يجتاح يوسف في تلك اللحظات، لقد تعب كثيراً في تربية أبناءه، وكان يحلم بأن يدفع بهم إلى هذه الحياة كأفراد ناجحين، وفي نفس الوقت متمسكين بكل القيم والمبادئ التي زرعها فيهم، وها هو اليوم يرى كل تلك الأحلام واقعاً أمام عينيه.

في مساء أحد الأيام.. تفاجأ يوسف بصاحب مكتب السفريات يعبر الشارع ويتوجه نحوه.

القى عليه التحية، فرد يوسف بكل لطافه على تحيته، وتحدثا في بعض الأمور قليلاً، ثم سأله صاحب المكتب **"منذ متى وأنت تجلس في هذا الكشك؟"**

أجابه يوسف **"منذ ٣٠ عام"**

فتعجب صاحب المكتب وسالة: **"وكم جنيت منه طوال حياتك!"**

رد يوسف قائلاً: **"حقيقة لا أدري"**

قال صاحب المكتب: **"رغبت في وداعك، فأنا قررت أن أغلق المكتب وأرحل"**

تعجب يوسف وسأله لماذا؟!، فأجابه صاحب المكتب: **"لقد تطورت (التكنولوجيا) كثيراً، وبات الكثير من الزبائن يجري حجوزاته بشكل فردي، من خلال خدمات (الانترنت).. لقد تأثرت مبيعاتنا كثيراً في السنوات الأخيرة، للحد الذي قررت معه إغلاق المكتب"**، ثم سأله: **"هل لديك أبناء؟"**

رد يوسف بنعم، سأله صاحب المكتب مجدداً **"وماذا يعملون؟"**

أجاب يوسف: **" ابنتي أمل طبيبة.. وابني توفيق كابتن طيار"** وبدوره وجه له يوسف سؤال مشابه، فسأله **"وماذا عن أبنائك؟"**

ظهرت علامات الاستياء على ملامح صاحب المكتب، وسكت ولم يجب على السؤال.

في هذه الأثناء، حضر شخص يقلّب في الكتب المعروضة في كشك يوسف، فالتفت نحوه صاحب المكتب وتأمله للحظات، ثم سأله: **"إن كنت ترغب في القراءة، فلم لا تتصفح الكتب عبر (الانترنت!) وهي متوفرة بكثرة، ويسهل الوصول إليها"**

التفت إليه ذلك المشتري، وقرّب أحد الكتب من أنفه، وأخذ نفساً عميقاً ورد عليه **"الكتاب الإلكتروني، لن يمنحني هذا الشعور الرائع الذي استمتع به، وأنا أشم رائحة هذه الأوراق"**

أشاح صاحب المكتب بوجهه، فوقع نظره على كتاب عنوانه (كيف تصبح مليونيراً) فتناوله وقلّبه، ثم سأل يوسف **"هل هذا الكتاب مفيد؟"**

أجابه يوسف **"ربما تتعجب لو قلت لك.. أنه الكتاب الوحيد الموجود لدي، ولم أفكر ولو لمرة واحدة أن أقراءه"**

سال صاحب المكتب عن ثمن الكتاب واشتراه، ومن ثم هم بالانصراف، ولكنه توقف قليلاً والتفت مرة أخرى نحو يوسف، وقال له **"أتمنى أن تسامحني"**

تعجب يوسف من طلب الرجل وسالة **"أسامحك على ماذا!"**

رد صاحب المكتب: **" منذ أن افتتحت مكتبي في هذا المكان منذ سنوات.. وأنا أسخر من حالك، وأحدث الجميع عن ضحالة تفكيرك الذي يدفعك لتبقى جالساً في هذا الكشك، تبيع في هذه الكتب التي لا يلتفت إليها إلا القليل من الناس.. وغير قادر على التفكير بشكل أكثر إبداعية، لتبحث لنفسك عن عمل يدر عليك مزيداً من المال.. وأعترف أنني ربما كنت مخطا في حقك"**، ثم استأذن وخرج.

الحياة رحلة تمتد بنا لسنوات طويلة، نبدأها بكثير من الأحلام، ونمضي فيها متمنين تحقيق كل ما نتطلع إليه، وهي بدورها

قد لا تمنحنا كل شيء، ولكن يضل الأمل يتقد فينا، ويمنحنا الإرادة لمواصلة الكفاح في معركة تستنزفنا حد الفناء.

فعلامات كبر السن بدأت بالظهور على ملامح يوسف، وعلى صحته الجسدية.. وهو لا يزال يحاول التماسك والمداومة على فتح الكشك يومياً.

وبعد أيام من انتقال صاحب المكتب، شاهد يوسف من خلال شباكه الصغير بعض العمال يقومون بفتح المحل المقفل أمامه، والقيام ببعض التجديدات، مما يعني أن هناك مستأجراً جديداً سياتي ليزاول نشاطا آخر.

جلس يحتسي قهوته بهدوء، ولكنه بدأ يشعر ببعض التعب، وألم يداهم صدره بشكل مفاجئ وعنيف.

لم يكن ألماً عابراً يمكن تجاهله، وإغفال إشاراته التي يبعث بها؛ بل أنه بدأ بالازدياد، للحد الذي لم يتمكن يوسف من تحمله، فاتصل بصديقه حسين مباشرة، والذي حضر على الفور، وقام بنقله إلى طوارئ المستشفى، وتلقى بعض الرعاية السريعة اللازمة.

ولكن تكررت نوبة الألم نفسها لعدة أيام، وأدخل بعدها إلى المستشفى، لإجراء الفحوصات.

وبينما هو يرقد على الفراش في المستشفى، تقدمت ابنته الدكتورة أمل نحوه، وجلست بجانبه على السرير.

أمسكت بيده النحيلة، وطلبت منه أن يعتني بنفسه أكثر، وأن يخفف من شرب القهوة التي لم تعد تتناسب وحالته الصحية.

التفت يوسف بنظره نحو النافذة التي بالغرفة، ثم عاد وسأل أمل: **"متى سأخرج من هنا؟"**

أجابته أمل: **"ستمكث هنا ليومين آخرين"**

رد يوسف: **" سئمت البقاء هنا.. والكشك مقفل منذ عشرة أيام الآن.. وهذه أول مرة أقفل فيها الكشك منذ أن افتتحته"**

ردت أمل: **" أنت لا تبيع سوى الكتب في الكشك.. وعلمتني يا أبي أن الكتب لا تفسد مهما مر عليها الزمن.. لا يجدر بك أن تقلق.. ستعود إلى الكشك، لتجد كل شيء كما تركته"**

تلك الليلة حلم يوسف بإيمان تزوره.

تقدمت نحوه وجلست بجواره، وأمسكت بيده، وقالت: **" ألف سلامة عليك.. لقد كبرت يا يوسف، وانهكتك الحياة كما يبدو"**

نظر اليها يوسف وقال: **" وأنت لا زلتي جميلة كما كنتِ دائماً.. وتلك البراءة التي كنت أحبها في عينيك؛ ازدادت بريقاً وجمالاً عن السابق"**

قالت إيمان: **" إنني أشتاق إليك كثيراً.. لا تتأخر، سأنتظر قدومك إلي قريبا"**

يوسف: **" كنتِ دوماً جنتي التي ألجأ إليها حين كنتِ معي.. حين كنتِ بقربي لم أكن أكترث بأي شيء.. ولكن الحياة فقدت بريقها في عيني منذ أن غادرتني.. فأنا عشت ما مضى من السنين يتيماً أتوق لعناقك ولو لمرة واحدة، لأتمكن من نسيان كل ألم"**

نهضت إيمان وفتحت ذراعيها وهي تناديه **"تعال.. سأتزين لك من جديد.. كما فعلت في ليلة عرسنا.. ولكن.. في هذه المرة سأنتظرك أنا.. لتزف إلي"** حتى رحلت وهي تردد سأنتظرك.

خرج يوسف من المستشفى، وعاد في الصباح ليفتح الكشك،

وهو يمشي بخطوات ثقيلة ومنهكة، ولفت انتباهه أن المحل الذي يقع بمقابل الكشك مغطى بأوراق الجرائد، ويخفي خلفه التجهيزات التي بالداخل، وكذلك اللوحة التي تشير إلى اسم المحل ونشاطه تمت تغطيتها، فلم يتمكن من التعرف على نشاط المالك الجديد.

دخل إلى الكشك، وأخذ يمارس عاداته اليومية.

أطعم الحمام وسقى أزهاره، أعد فنجان قهوته وجلس يحتسيها.

لم يلحظ أن المستأجر الجديد أتى، وبدأ هو وابنته الشابة بإزالة الأوراق عن واجهة محلهما، وكالعادة نشب شجار في الخارج وارتفعت الأصوات، فأغلق شباكه الصغير دون أن يكلف نفسه عناء النظر إلى الخارج.

فجأة سمع صوت آلة (الشلو) تعزف أحد أغنيات فيروز، وصوت فتاة تغني.

**" صار لي شي ١٠٠ سنة.. عم ألف عناوين ..مش معروفة لمين!**

**وديلهون أخبار.. بكرة لابد السما ..لتشتيلي عل الباب**

**شمسيات وأحباب.. بيخدوني بشي نهار**

**والي اتذكر كل الناس.. بالآخر ذكرني**

**أديش كان في ناس.. عل المفرق تنطر ناس**

**وتشتي الدني ويحملوا شمسية**

**وأنا بأيام الصحو.. ما حدا نطرني"**

أنصت يوسف باهتمام وصمت إلى تلك الأنغام التي اقتحمت كشكه، وشعر بأن هناك تغيير حصل في الخارج، في ذلك الحي الذي كان يكره كل ما فيه من القبح والزيف، وشعر يوسف بأن هناك ما يستدعي أن يراه.

انتفض من مكانه وهو يسمع تلك الأنغام الجميلة، والتي لم يعتد على أن يسمعها في هذه الحارة منذ أن افتتح كشكه فيها.

ضرب بكلتا يديه على واجهة الكشك من الداخل؛ لينفتح شباك كبير بدرفتين، كان يغلقهما عمداً طوال السنوات الماضية، ولم يرغب في فتحه ابداً، لأنه يؤمن بان ليس هناك ما يستحق أن ينفتح عليه في الخارج، مكتفياً بشباكه الصغير.

نظر من خلاله، فرأى المحل الذي يقابله قد غدا محلاً لبيع الأزهار.

ورجل بملامح ودودة يجلس على الكرسي أمام المحل ويعزف على (الشلو) وبجواره تقف ابنته الشابة وتغني.

توقفا عن العزف والغناء مع صوت انفتاح النوافذ، وحدقا باتجاه يوسف الواقف خلف الشباك، وتبادلا النظرات للحظات، ثم نظر يوسف إليهم وابتسم، وأومأ إليهم برأسه بأن واصلا العزف والغناء.

يوسف، هي تلك الشخصية التي تمثل القيم الراسخة التي لا يمكن للزمان أن يعبث بها.

الكلمة، والنغم، والطبيعة، والبراءة، والمشاعر الصادقة، هي كل ما كان يعشقه في هذه الحياة، وتمثل بالنسبة إليه قيمة لا يمكن التنازل عنها.

عاش في محيط لا ينتمي إليه، ولكنه تمكن من أن يبتعد عن كل تلك التفاهات، وانغمس في الاطلاع والثقافة، وجعل من تربية أبنائه أولوية، حتى أوصلهم إلى النجاح، وشعر أخيراً

بأن دوره في الحياة انتهى عند هذا الحد، وموعد الرحيل بات قريباً، وربما أقرب مما كان يظن.

# سيرة الحب

(سيرة الحب) هي إحدى إبداعات السيدة أم كلثوم، أيقونة الفن والطرب في الشرق.

تلك الأغنيات التي تثير فينا العواطف والحنين، وتنتقل بنا إلى الحقبة الزمنية التي كانت الكلمة والنغم لها طابع مختلف، يتناسب وحياة الناس الهادئة، بتفاصيلها المفعمة بأناقة الحوار والملبس، وصدق المشاعر.

حين كان الحب شعوراً ينبع من القلب، ويتجاوز غرائز الجسد وشهوات النفس، ويفرض قوانينه على كل من تستدرجهم عواطفهم للركض خلفه، وحين كان الوفاء والعطاء خصلة حميدة لا تستوجب الندم كخطيئة تقترف في حق الذات، وتستوجب الاستغفار.

أحمد وسلاف زوجان من تلك الحقبة، جمعتهم قصة حب لسنوات وانتهت بالزواج.

كلاهما في نهاية العقد الثالث من العمر، وأحمد يعمل كمحامي في أحد مكاتب المحاماة، بينما سلاف هي كاتبة وروائية، ينسج خاليها الخصب أجمل قصص العشق والغرام.

سارت علاقتهم الزوجية بشكل لا بأس به، ولكن مع مرور الوقت ساد بينهم نوع من الفتور في العواطف، والذي أدى بهم في نهاية الأمر لمناقشة مسألة الانفصال بشكل جدي.

عاد أحمد إلى المنزل في الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم، وفتح باب شقته وتوجه بهدوء نحو طاولة الطعام الكبيرة التي كانت تتوسط غرفة المعيشة، بينما سلاف زوجة أحمد كانت قد أطفأت جميع أضواء المنزل، وجلست على الطاولة مكتفية بضوء شمعة يتيمة تنتصب أمامها، وهي عاكفة على الكتابة، وحولها على الطاولة كومة من الأوراق المتناثرة بفوضوية بالغة.

كانت سلاف تجلس وهي مرتدية فستانها (الكلوش) ذو اللون الرمادي، وبياقات مطرزة باللون الأبيض، ومعطفها الطويل

وقبعتها ملقاة على الكرسي الذي بجوارها، وكأنها تستعد للخروج، وكانت تسريحة شهرها القصيرة والمتموجة تلامس أكتافها، ومن كان يرى تسريحتها؛ سيظن بأن مصمم تلك التسريحة لم يبتكرها إلا لتزيد من جمال هذا الوجه الملائكي الساحر، والذي يجعل كل رجل يشعر بمجرد أن تقع عيناه عليها؛ أنه قد ألقى عليه هذا السحر بطلاسمه.

أقترب أحمد من حيث كانت تجلس سلاف، وهو يرتدي بدلته المصنوعة من الصوف الإنجليزي الفاخر، ويضع أحدى يديه في جيب بنطلونه، ويعبث بميدالية مفاتيحه باليد الأخرى.

القى أحمد تحية المساء على سلاف، وردت هي بدورها بصوتها الهامس **"مساء النور"** ودون أن ترفع رأسها من على أوراقها التي تعكف على كتابتها.

توجه أحمد بنظره إلى جانب الأريكة بالصالون، فرأى حقيبة سفر سلاف الكبيرة، وبجانبها حقيبة أخرى أصغر حجماً، وبدأ بإدراك الأمر.

سحب أحد الكراسي التي كانت في مواجهة سلاف، وجلس عليها مواجها إياها بكتفه الأيمن، واضعا يده اليمنى

على الطاولة، ومادأً قدمه اليسرى على طولها.

سألته سلاف دون أن ترفع رأسها قائلة: **"عملك ينتهي في الرابعة مساء، وقد تجاوزت الساعة الآن التاسعة!.. وكنا قد اتفقنا بالأمس، أن نجلس سوياً اليوم للحديث في كل تلك النتائج التي توصلنا إليها سابقاً"** قالتها وصوتها يحمل في طياته نبرة العتاب.

لم يشأ أن يرد عليها أحمد، واكتفى بالصمت.

عادت سلاف للحديث قائلة: **"أ تراك كنت تخطط للتهرب من مواجهة الأمر!"**

ابتسم أحمد ابتسامة بعيدة كل البعد عن المعنى المعروف لمعنى الابتسامة الحقيقي، والذي يشير عادة للسعادة، ورد قائلا: **"أرى أنك قد تجهزتِ للرحيل بالفعل يا سلاف!"**

سلاف: **" كان من المنطقي أن أكون قد غادرت الآن بالفعل.. لو لا أنك قد تأخرت بالعودة"** ثم تابعت كلامها **"حسنا.. دعنا لا نضيع المزيد من الوقت، ولكن أمهلني لدقائق، حتى أنتهي من كتابة هذا الجزء من الرواية"**

وعادت سلاف لإكمال الكتابة، ولكنها ما لبثت أن تنبهت مجدداً وسألته: **"هل تناولت غداءك.. أم ترغب في أن أعد لك الطعام؟"**

وأجاب أحمد بأنه لا يشعر برغبة في تناول شيء.

وجلس بعدها صامتا، ينتظر أن تنهي سلاف كتابة الفكرة التي تعمل على كتابتها.

وأثناء ذلك، وجد قطعة نقود معدنية على الطاولة، فتناولها بيده، وبدأ في العبث بها، وجعلها تدور بحركة سريعة، ويستمر في تأملها وهي في حالة الدوران؛ إلى أن تفقد قوة الدفع وتتهاوى بحركة لولبية على الطاولة، محدثة بعض الضجيج.

استمر أحمد يعبث بتلك القطعة، وكلما توقفت؛ عاد لتدويرها.

توقفت سلاف عن الكتابة، ووضعت يدها على جبينها، وأشاحت بوجهها إلى الجهة الأخرى، لتعبر عن انزعاجها من الأمر، ثم قالت بتأفف: **"أرجوك توقف عن ذلك.. إنك تثير أعصابي بهذا التصرف.. ولن أتمكن من ترتيب أفكاري"**

توقف أحمد عن تكرار ذلك، وكأنه شعر بملل الانتظار قليلاً؛

فنهض من على كرسيه، وتوجه بخطوات هادئة نحو جهاز تشغيل الأسطوانات، وفتح الخزانة التي تحتها، وبدأ بالعبث بمحتوياتها.

أخرج أحمد أحد الأسطوانات، وانتزعها من داخل غلافاها، ووضعها على آلة التشغيل.

بدأت الأسطوانة بالدوران، وإصدار صوت تلك الخرفشة الناعمة؛ التي عادة ما تسبق بدء الأغنية في أجهزة تشغيل الاسطوانات.

وعاد أحمد للجلوس في مكانه مرة أخرى، وما أن بدأت الأغنية؛ وسمعت سلاف بداية المذهب الأول منها؛ حتى توقفت مجدداً عن الكاتبة وقالت: **"يا الله.. كم أحب هذه الأغنية!.. من أجل عينيك، لأم كلثوم"** وبدأت في تمتمة الأنغام عبر شفاهها بهدوء تام، وعيناها سارحة في خيال بعيد.

مرت عدة دقائق، وكلاهما ينصت إلى الأغنية دون أن يهمس أحدهما إلى الآخر بكلمة.

وبعدها بادر أحمد بالسؤال: **"إلى أي فصل بلغتِ في كتابة روايتك؟"**

ردت سلاف: **"إلى النقطة التي بدأت فيه بطلة القصة بالشعور بالملل من علاقتها بحبيبها"**

أحمد: **"ما أسرع ما تتسلل المشاعر المرتبكة تلك إلى نقوس النساء، في كل علاقة حب تجمعهم برجل!"**

وأخيراً رفعت سلاف رأسها، وأغلقت غطاء قلمها، وعدلت من جلستها قليلاً، وبدأت بالنظر في عيني أحمد مباشرة للحظة، وهمست: **"لقد انتهيت"**

وأحمد لا يزال على جلسته السابقة، رافضاً التوجه بكامل جسده باتجاهها ورد: **"حسنا يا سلاف.. وأنا جاهز للإصغاء إليكِ.. كما كنت أحاول أن أفعل ذلك دائماً"**

سلاف: **"فالحقيقة لم تكن تفعل.. فلا تحاول تزييف الحقائق الآن"**

أحمد: **"لن أحاول التزييف.. ولكن على الأقل كنت صادقاً فيما أظن أني أقوم به.. وإن لم تتمكني أنتِ من الشعور بمحاولاتي؛ فلن أقول بأن تلك مسألة سوء تواصل كانت بيننا.. ولكن سأعتذر لك بلطف بأن محاولاتي لم تكن كافية بالنسبة لك"**

سلاف: **" أربع سنوات مضت على زواجنا.. ولا أرغب في وصفه بأنه كان زواجاً بائساً وتعيساً.. لأنه لم يكن كذلك يوماً.. ولكن هناك العديد من التفاصيل التي كانت حتماً ستجعل منه كذلك مع مرور الوقت"**

هز أحمد رأسه بتعجب وتابع: **"كنت أتمنى أن تجنبي علاقتنا تحليلاتك المنطقية هذه التي تمارسينها على كل تفاصيل حياتك.. ونبتعد عن التوقعات التي ربما لن تحصل"**

سلاف: **"أفضل أن أغادر العلاقات وهي لا تزال تحتفظ ببعض جمالها.. فذلك عادة ما يكون أكثر أناقة في إنهاء أي علاقة"**

أحمد: **"منذ أن رأيتك للمرة الأولى وأنا مغرم بأناقتك.. ولكني ولأول مرة؛ أتعرف على أشكال أخرى من الأناقة.. ويبدو لي أن لها وجه آخر بعكس من كنت أظنه ويبدو سابقاً"** صمت للحظة، وهم بالحديث مجدداً، ولكن سلاف قاطعته فجأة وسألته بارتباك.

**"أوه أسفة.. لقد نسيت أن أسألك.. يال ذاكرتي السيئة.. كان مقرراً لك أن تلتقي برؤسائك في العمل اليوم.. هيا أخبرني.. هل حصلت على الترقية؟"**

رد أحمد بقدر من اللامبالاة على سؤالها: **"نعم.. تمت ترقيتي بالفعل.. وسوف أباشر مهامي الجديدة مع بداية الشهر القادم"**

تعجبت سلاف من الطريقة اللامبالية تلك التي رد بها أحمد، وكأنه لم يكن يشعر بأي حماس تجاه الأمر، فرأت أن تستوضح منه المسألة.

**"ما بك أحمد.. لمَ أشعر بأنك لم تعد تملك نفس الحماس تجاه هذه الترقية؟.. لقد كنت تعمل على المسألة منذ أشهر عدة.. وها أنت الآن تبدو وكأنك لا تبالي!"**

صمت أحمد، وعاد للعبث بالقطعة النقدية مجدداً، وبنفس الطريقة.

سلاف: **"ها أنت تعود لنفس الأمر مجدداً"** قالتها بنبرة حادة.

ترك أحد العملة النقدية من يده، ونظر في وجه سلاف، وبريق الشمعة يتلألأ على وجهها، بينما الظلال تخفي شيء من ملامحها، وتأمل في عينيها، ولفت انتباهه أنها كانت قد وضعت بعض الكحل، وسألها بطريقة مشاغبة: **"أ تضعين الكحل؟"**

سلاف: **"في الحقيقة.. نعم"**

أحمد: **"أوه حسناً.. لقد بدت لي عيناك فجأة أجمل، وأكبر من المعتاد"**

شعرت سلاف ببعض الغيض من كلامه، فردت عليه بشيء من الحدة: **"لم تكن عيناني صغيرة يوماً"**

أحمد: **"بل هي كذلك"**

سلاف: **"ما بالك إذاً كنت تتغزل بها فيما سبق!"**

أحمد: **"ألم تلحظي أنني كنت أفعل ذلك عادة حين تكونين مكتحلة!"**

ردت سلاف بإحباط: **"هكذا هم جميع الرجال.. ينهالون بكلمات الغزل على محبوباتهم.. وبمجرد أن تصبح ملكه.. لا يعود يرى فيها إلا أسوأ صفاتها.. ولم قد تختلف عنهم!.. فأنت كذلك رجل، تحكمك نفس الغرائز، وتسيرك أنانيتك"**

ضحك أحمد بقهقهة حتى مال برأسه إلى الخلف، وبعد أن انتهى من الضحك قال: **"وهكذا أنتم أيها النساء.. ما أسرع ما تنسون كل تلك التفاصيل الجميلة التي يحاول الرجل منحكم إياها"** صمت للحظة، ثم عاد للحديث بنبرة يملأها الحب:

**"أ نسيتِ..! كم مرة قلت لك بأنني أكره هذا الكحل الذي تضعينه في عينك، لأنه يخفي جانباً كبيراً من جمالهما البريء.. أ لا تذكرين كم مرة قلت لكِ بأنني أحبك كما أنتِ، بدون رتوش مصطنعة"**

سلاف: **"ولكني أضل أنثى، أتوق للزينة"**

أحمد: **"وأنا سأضل رجل يعشق روح محبوبته، ويتوق لرؤية تلك الروح داخل جسدها الشفاف كالبلور.. وبالتأكيد فمساحيق التجميل التي تستخدمها لزينتها كانت تحجب عني رؤية تلك الروح"**

ارتبكت سلاف قليلاً، وحاولت تدارك الأمر واستعادة سيطرتها على مجرى الحوار، وتابعت حديثها وهي تقول: **"تعلم أني قد اتخذت قراري أحمد"**

رد عليها أحمد وهو ينظر إلى إزرار جاكيته، ويعبث به هذه المرة **"أعلم بأن الأمور بيننا كانت تسير بهذا الاتجاه منذ أشهر"**

ردت سلاف بتهكم: **"كنت تعلم!"** وصمتت للحظة،

وعادت للقول بنبرة حزينة: **"ولكنك لم تفكر باتخاذ أي خطوة.. أو تقديم أي حل لإصلاح الأمور"**

أحمد: **" يقول بلزاك: النساء في مملكة الحب ثلاثة: فهناك امرأة تحب بعقلها؛ وهي امرأة لا تحب، ولا تعرف الحب، وامرأة تحب بروحها؛ وهي امرأة تسعدها الكلمة، وتشقيها الكلمة، وامرأة تحب بجسدها؛ فادعوا لها.. لأنها سرعان ما تجعل حياتها رماداً"**

ردت سلاف بأسلوب هجومي: **" ماذا تعني بذلك.. وفي أي تصنيف تضعني بين تلك التصنيفات الثلاثة!"**

أحمد: **"في حقيقة الأمر أنت صنف رابع، لا ينتمي لأي من الثلاثة"**

وساد الصمت للحظات، وسلاف تنتظر أن يكمل أحمد كلامه، فهي تتلهف لمعرفة أي صنف من النساء هي في رأي أحمد.

ولكن أحمد ضل صامتاً، وهو يتعمد إثارة فضولها، وينتظر أن تبادر بالسؤال، وبالفعل فقد بادرت سلاف بسؤاله: **"ما بك قد صمت.. لمَ لا تكمل كلامك وتجيب على سؤالي!"**

أحمد: **"أنتِ يا سلاف أنثى تحب بروحها.. ولكنها تعيش تفاصيله بعقلها.. بعقلها فقط"**

قال أحمد تلك الكلمات بنبرة إحباط، ثم واصل حديثة: **"لم أشك يوماً في حبك لي، ولكن كان من الصعب علي الإحساس بأي تفاصيل لذلك الحب.. لقد كنت دائماً بارعة في تشييد الحواجز بينكِ وبين الآخرين ممن يحبونك.. وكأنك تدفعين دفعاً بكل من يحاول الاقتراب منك ليبتعد"**

سلاف: **"أراك انتقلت في كلامك من كون المسألة تخصنا نحن الاثنين فقط، إلى علاقتي بجميع من أعرفهم بالعموم!"**

تجاهل أحمد تعليقها، واستمر في سرد ما يود ايصاله لها من رسالة: **" إدراكك لحقيقة كونك تملكين شخصية جذابة بهذا الجمال؛ جعل منك إنسانة غير مبالية بكمية المحبة التي تحصلين عليها من جميع المحيطين بك.. فالفائض في الشيء يورث الزهد فيه"**

كان وقع الكلمات قاسياً على سلاف، فمضمون حديثه يوحي بأنها شخصية مغرورة وقاسية في آن معاً، وحاولت أن ترد عليه برد مناسب، ولكن باغتها وميض البرق الذي تسلل فجأة

من خلال النافذة، وتبعه صوت الرعد المدوي، وحدق كلاهما باتجاه النافذة للحظات، ثم قال أحمد: **"أظنها ستمطر الليلة"**

سلاف: **"لا، لن تفعل"**

أحمد: **"بل ستمطر.. فالسماء كانت ملبدة بالغيوم منذ أيام، وكأنها تستعد لأن تنفجر بمطر غزير.. ولن تتمكن من المغادرة قبل أن تفرغ حمولتها الثقيلة"**

نهض أحمد من مكانه، واتجه مجدداً نحو جهاز تشغيل الأسطوانات، وأثناء سيره سألها: **"هل تودين الاستماع لأغنية أخرى؟"**

سلاف: **" لا.. لا أشعر برغبة في ذلك"** ثم استدركت **"لا.. في الحقيقة نعم"**

أحمد: **"حسنا.. وماهي الأغنية التي تودين في الاستماع إليها؟"**

ردت سلاف: **"سيرة الحب"**

ابتسم أحمد، وبدأ بالبحث بين الأسطوانات عنها، حتى وجدها، ووضعها على قرص التشغيل، ووضع إبرة التشغيل،

وبدأت الأسطوانة بالدوران، وعاد أحمد للجلوس على كرسيه.

عاد أحمد ليسأل سلاف: **"لم قد نخاف من الحب!.. وهو أجمل شعور قد يختبره الإنسان في الحياة.. حقاً هناك من يرتكب جريمة بحق نفسه، حين يوصد أبواب ونوافذ قلبه، ويمنع النسيم من حمل ذلك الشعور إليه"**

سلاف: **"ستجد الإجابة على تساؤلاتك في نفس كلمات الاغنية"** وبدأت سلاف بتمتمة الكلمات بصوت خافت: ويحمل الكثير من الألم: **"وأعرف حكايات.. مليانة آهات.. ودموع وأنين.. والعاشقين ذابوا ما تابوا.. طول عمري بقول.. لا أنا قد الشوق.. وليالي الشوق.. ولا قلبي قد عذابه"**

وعاد الصمت ليسود بينهم، وكأن كلاً منهم لديه عالم خاص يغرق فيه بكامل مشاعره، وربما هو خاص بظاهرة، فلا يمكن أن يكون خاصاً بذاك القدر الكبير بينهما.

كان أحمد ينظر إلى سلاف خلسة دون أن تشعر هي بذلك، ولم يرغب بأن يشعرها في حقيقة الأمر، بينما كانت هي تجلس مطأطأة رأسها نحو الأسفل، وكأنها تتلو إحدى صلواتها في محراب السكون.

كان ضوء الشمعة المرتجف يحدث تأثيرات من البريق كلما اهتز في عيون سلاف، وأحمد يتأملها بكل عمق، ولكن ما لبث وأن انتبه أن ما يبرق في عيني سلاف لم يكن سوى طلائع لدموع، تستعد لأن تتدفق بكل عنفوان.

صرخ أحمد في أعماقه: **"يا إلهي.. إنني لا أكاد أصدق ما أراه.. كم كنت أتمنى أن أرى ملامح سلاف الحزينة تلك باكية ولو لمرة واحدة.. كنت أتوق لتلك اللحظة التي ستجعل منها أجمل امرأة بأجمل ملامح"**

وماهي إلا لحظات، ورأى الدموع تتدفق من عينها.

قفز من على كرسيه وركض نحوها، وانحنى على ركبتيه، وأمسك بإحدى يديها وقبلها.

أحمد: **"يال المفارقات التي يصادفها الإنسان.. كنت أتوق لأن أرى ملامحك باكية ولو لمرة واحدة.. لقد كنت دائماً قوية غير قابلة للانكسار.. وها هو الأمر يحصل في هذه الليلة الكئيبة.. لمَ هذه الليلة بالتحديد!.. لمَ يا سلاف أجيبيني.. هل هي التذكار الذي تنوين تركه لي يا سلاف؟.. كنت بدأت أفقد الأمل في أني سأنعم يوماً بهذه اللحظة.. وكنت بدأت أؤمن بأنك امرأة**

**لا تبكي.. ربما كنت أحياناً أحدث نفسي قائلاً: ربما هي تفعل ذلك في الخفاء، بعيداً عني وعن عيون الجميع.. وبلغ بي الحال لأن أتحسس وسادتك دون علمك، ربما أجد عليها بقايا من دموع لاتزال رطبة"**

كانت سلاف بدأت تجهش بالبكاء، ويدها ترتعش بين يدي أحمد، ولكنها توقفت فجأة والتفت إليه قائلة: **"أرجوك انهض.. أكره أن أراك راكعاً.. لقد كان اعتزازك بنفسك يثير إعجابي دائماً.. أرجوك لا تجلس هكذا أمامي"**

نهض أحمد، وجال بنظره في الصالون، حتى وجد علبة المناديل الورقية موضوعة فوق أحد الطاولات، وأسرع نحوها وعاد بها، وانتزع منها بضعة مناديل، وبدأ في تجفيف دموعها من على عينها ومن على خدها، وحين أقترب من أنفها محاولاً تجفيفه، أشاحت سلاف بوجهها بعيداً وهي تضحك بخجل.

نظر إليها أحمد وطلب منها بلطف: **"دعيني أفعلها يا سلاف"**

ضحكت سلاف ضحكة ممزوجة بالبكاء، وهزت رأسها دليل على رفضها، ولكنه أعاد طلبه مرة أخرى قائلا: **"أرجوك.. اسمحي لي"**

فلم تبدي سلاف أي ردة فعل تنم عن موافقتها أو رفضها.

قرّب أحمد المنديل من أنفها، وبدأ بتجفيفه، وسلاف غير قادرة على النظر في عينه، وبعد أن انتهى، قام أحمد بطي المناديل بطريقة مرتبة، ومد يده باتجاه جيب الجاكيت ليضعه فيه.

انتبهت سلاف لما كان يفعله أحمد، وأمسكت بيده بسرعة وقالت: **"ما الذي تفعله أيها المجنون!"**

أحمد: **"لا شيء.. سوى إنني أحاول فقط الاحتفاظ قدر الإمكان بشيء سيذكّرني غداً؛ بما كنت أملكه بالأمس"**

سلاف: **"أرجوك لا تفعل.. انظر.. سلة النفايات موجود هنا تحت الطاولة.. هيا ألقي بهذه المناديل داخلها"**

تجاهل أحمد طلب سلاف، ووضع المناديل في جيبه.

كانت بضع قطرات من الدموع قد سقطت على الصفحات التي أمام سلاف على الطاولة.

نظر أحمد نحوها، وتناول واحدة منها، فوجد أن قطرة من تلك الدموع؛ قد أصابت كلمة الحب في جملة تقول: **(إنني فقدت القدرة على مواصلة هذا الحب)** على لسان بطلة الرواية.

تأملها أحمد قليلاً، ومد الورقة باتجاه سلاف وقال لها: **"انظري.. لقد شوهت دموعك ملامح كلمة الحب.. ولكن لم تتمكن من طمسها بالكامل.. فلا زال بالإمكان قراءتها"**

وهنا بدأت السماء تمطر بمطر غزير، وتوجه أحمد نحو النافذة، وأزاح الستار بإحدى يديه، وبدأ بمراقبة المطر.

فقالت سلاف: **" سأنتظر قليلاً ريثما يتوقف هذا المطر لأرحل"**

كان أحمد لا يزال واقفاً خلف النافذة يراقب انهمار المطر، فأصابته الكلمة التي سمعها بالإحباط.

توقف عن المتابعة وابتعد متقدماً نحو المطبخ.

لحظات ولحقت به سلاف من وراءه، ودخلت المطبخ لتجده قد هم بأعداد فنجان من القهوة.

اندفعت نحوه بسرعة، وأمسكت بيده لتمنعه من المواصلة، وقالت له: **"ليس مجدداً.. إنك تعاني منذ أيام عديدة من عدم القدرة على النوم.. أرجوك.. لا تفعل"**

صمت أحمد وكأنه قد اقتنع بما تقوله سلاف، أو أنه

في حقيقة الأمر، لم يكن يقوم بأعداد القهوة لأنه كان يشعر برغبة فعلية في تناولها في هذه الساعة، ولكنها ربما كانت رغبة في الهروب والابتعاد، والتظاهر بالانشغال بأي شيء.

سلاف: **"وأتمنى ألا تكون قد احتسيت المزيد منها أثناء تواجدك خارج المنزل طوال النهار"**

ترك أحمد من يده كل شيء، وتأمل في وجه سلاف للحظات، وخرج من المطبخ متوجهاً نحو غرفة النوم، وأغلق الباب من ورائه.

ارتدا ملابس النوم، واستلقَ على فراشه على جانبه الأيمن، مواجها خزانة الملابس، وتناول وسادة سلاف وضمها إلى صدره، وهو يستنشق ما علق بها من رائحة سلاف.

مرت ساعة، وهو لا يزال على تلك الحال؛ حتى شعر بأن المطر قد توقف أخيراً.

وبدأ يردد في نفسه: **"هيا يا سلاف، غادري الآن.. الآن يا سلاف"**

كان يشعر برغبة شديدة في البكاء، وينتظر سماع صوت

باب الشقة يفتح ويغلق؛ حتى ينفجر باكياً.

ومرت دقائق أخرى، وهو يترقب صوت غلق الباب.

ولكنه تفاجأ بأن سلاف تقوم بفتح باب الغرفة بهدوء شديد، وكأنها تتوقع بأن أحمد قد غط في نومه، وتخشى أن توقظه.

تسللت بهدوء، بينما تظاهر هو بالنوم.

فالغرفة كانت مظلمة بالكامل، وليس بمقدور أي منهم رؤية ملامح الآخر بشكل واضح.

ظن أحمد بأنها ربما تذكرت بأنها نسيت أحد متعلقاتها الشخصية، ودخلت لتأخذها، ربما زجاجة عطرها، أو قد يكون حزام معطفها، أو فرشاة شعرها.

دخلت سلاف، وأغلقت الباب خلفها، ومشت بخطوات خفيفة، وأحمد لا يكاد يشعر بحركاتها في المكان، لشدة حرصها بأن لا تحدث ضجيجاً قد يزعجه.

ومرت بضع دقائق، وبدء فضول أحمد يزداد حول ما الذي تقوم به الآن، وحاول استراق النظر لمعرفة الأمر، ولكن الظلام داخل الغرفة كان حالكاً، وفي الحقيقة كانت سلاف

موجودة في الجانب الذي يقع خلفه، فلم يتمكن من رؤيتها.

ثم شعر بحركة واهتزاز على الفراش، فأدرك أنها جلست على السرير.

وبدأت سلاف تتحسس المكان، وكأنها تبحث عن شيء ما، ومن ثم مدت جسدها من وراء أحمد، محاولة النظر ومواصلة البحث، فتفاجأت بأن أحمد كان ينام وهو يضم وسادتها إلى صدره، وهمست **"يا إلهي أنها بين يديه"**

وهنا أدرك أحمد ما لذي كانت تبحث عنه، فناولتها الوسادة دون أن يتفوه بكلمة، ولم تتوقع سلاف بأنه لا زال مستيقظاً، فسالته **"هل أيقظتك!.. آسفة لذلك"**

شكرته لمناولتها الوسادة، وتمنت له ليلة سعيدة، ثم استدارت واستلقت على فراشها على جانبها الأيسر، بمواجهة الجهة الأخرى من الغرفة.

كانت المساحة التي تفصل بينهما واسعة في هذه الحالة، ولكنها كانت مليئة بالحب الذي لم يتناقص يوما.

مرت لحظات، وبادر أحمد بعدها بالقول: **" ألم أخبرك بأنها ستمطر؟"**

سلاف: **"دائماً ما تحاول أن تكون صاحب الكلمة الأخيرة في أي حوار بيننا"**

أحمد: **"إنني لا أسعى إلى ذلك حقيقة.. ولكني أحب بأن تكون آخر كلمة في أي حوار بيننا بصوت القلب، لا بصوت العقل.. تصبحين على خير"**

# دمى لا تبتسم

كان صباحاً مشروقاً كعادة هذه المدينة، ولا شيء يدل على أنه سيكون يوماً مختلفاً عن أي يوم آخر.

ولم قد يكون مختلفاً..!.

فالناس هم الناس، والأحداث تتكرر كتكرار دوران عقارب الساعة، التي لا تكف عن الركض.

الجميع يستيقظ صباحاً ليتوجه إلى عمله، والجميع ينام ليلاً ليتمكن من الاستيقاظ لعمله في الصباح التالي.

وكأن حياة الإنسان، مسخّرة بالكامل ليعمل، ويستمر بالعمل، حتى يغادر الحياة.

تلك الأفكار هي التي دارت في رأس عاطف، الذي استيقظ لتوه من النوم، وضل مستلقياً على فراشه، في حين كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً.

نظر إلى ساعته بملل، وفكر بالعودة لمواصلة النوم، ولكنه شعر بالجوع قليلاً، فاضطر للنهوض لتناول طعام الفطور.

أعد وجبة خفيفة، مما توفر لديه حينها في المنزل، فهو شاب في نهاية العقد الثالث من عمرة، ابن قرية، انتقل منذ عدة سنوات للسكن والعيش في المدينة لظروف العمل، وبعد سنوات من عمله في أحد المصانع؛ فقد وظيفته، ومنذ ستة أشهر يبحث عن عمل آخر.

تناول عاطف فطورة، ثم نهض ليعد لنفسه فنجان قهوته الصباحية.

ولكنه تذكر بأن البن الذي كان لديه في المنزل قد استهلكه بالكامل، ونسي أن يجلب المزيد منه في الليلة الماضية.

وياله من شعور سيء، لا يدرك مقدار سوئه سوى من اعتاد على تناول فنجان القهوة فور استيقاظه من النوم، وكأنها الوقود المشغل لحواسه التي لا تستأنف نشاطها إلا بعد احتسائها.

قال لنفسه، بالعموم كل الأمور تسير بشكل ينافي المثالية، فلمَ قد تكون هذه المسألة مثالية الآن!.

قرر بأن يخرج لاحتسائها في الخارج، وعلى الفور ارتدا ملابسه وخرج.

نزل سلالم المبنى بهدوء، وخرج إلى الشارع، وبدأ بالسير وهو يتأمل في وجوه المارّة من حوله، والباعة من أصحاب المحلات، التي بدأت نشاطها للتو.

كان المقهى الذي يقصده عاطف لا يبعد كثيراً عن محل إقامته، ويستغرق الطريق مدة عشرين دقيقة سيراً على الأقدام، وسرعان ما وصل، ووجد أحد الطاولات الشاغرة، التي عادة ما تكون موجودة خارج المقاهي على الرصيف.

جلس هناك، وماهي سوى لحظات، حتى تقدم نحوه النادل ليسأله عن طلبه.

طلب عاطف فنجان من القهوة، وجلس بانتظار تقديمها إليه.

لفت نظره وجود سيدة تجلس على الرصيف بجوار المقهى.

لقد كانت هيئتها بائسة، للحد الذي استحوذت فيه على انتباه عاطف بشكل كامل، وبدأ بتأمل كل ذلك البؤس الظاهر عليها، وأيقن بأنها ولابد وأن تكون إحدى المتسولات الاتي يجبنا شوارع المدينة.

لقد كانت ترتدي ملابس رثّة، عبارة عن تنورة بلون رمادي، وقميص باللون الأحمر الباهت، الذي يصعب تمييزه عن اللون الأبيض لشدة بهتان لونه الأصلي، نتيجة استهلاكه طوال سنوات.

وهو بالتأكيد لن يكون من النوع جيد الصنع وغالي الثمن، ليكون بمقدوره مقاومة السنين، والاحتفاظ بلونه الزاهي لفترة طويلة.

كانت ملامحها باردة، شاحبة وجافة، بالرغم من أنها شابة لم تبلغ الأربعين، وهذا بالطبع ما كانت تقوله ملامحها.

ومن شدة تعابير وجهها المتجمّدة؛ خُيل لعاطف للحظة بأنها ربما لم تبتسم منذ سنوات طويلة؛ حتى تجمّدت ملامحها إلى هذا الحد.

انغمس عاطف بأفكاره وهو يتأمل تلك السيدة، ولم يكن شيء ليوقف تسلسل أفكاره إلا وضع النادل لفنجان القهوة على طاولته، محدثاً ضجة صغيرة.

شكر عاطف النادل بلطف، وابتعد الثاني متوجهاً نحو زبون آخر يجلس على الطاولة المجاورة، وكان الزبون رجلاً بديناً ومتقدماً في العمر، يجلس متكأً بكلتا يديه على عكازه، ومسنداً ذقنه عليهما، وحين وصل إليه النادل اكتفى المسن بهز رأسه بإيمائه بسيطة، فهمها النادل وأنصرف.

وكأن الرجل زبون معتاد لدى هذا المقهى، يأتي يومياً في موعد محدد، وبقائمة طلبات محددة، قد تطول أو تقصر، ولكنها حتماً لن تنافس قائمة العقاقير التي يتوجب عليه تناولها يومياً على أي حال.

نظر عاطف إلى طاولته، وحدق قليلاً بمزهرية صغيرة بيضاء بعنق طويل تتوسط الطاولة، وبداخلها وردة صفراء اللون.

تأمل الوردة قليلاً، وخطرت بباله فكرة.

ماذا لو قدمت هذه الوردة إلى تلك المرأة المتسولة!

حتما ستفرح بها كثيراً، وربما انعكست نظارة تلك الوردة على وجه السيدة، لتعيد إليها شيء من الحيوية والبهاء.

تناول الوردة بيده وهمَّ مباشرة بالنهوض، ولكنه تراجع عن قرارة وعاد للجلوس وهو يفكر.

وما عساها أن تفعل بوردة!

ما حاجة بائسة مثلها إليها؟

فمثلها يهتم بالحصول على ما يسد جوعه، لا إلى ما تمثله هذه الوردة من جمال.

وربما قطعة واحدة من الكعك أثمن لديها من باقة كاملة من الأزهار.

ثم عاد يحدث نفسه: ولكنها تضل أنثى، يثيرها منظر الأزهار، وتثير حواسها بعطرها وعبيرها، وتضل كينونتها الطبيعية كما هي، حين أراد الله لها أن تكون أنثى، وإن حولتها الحياة إلى ما يشبه الصنم الجامد، الخالي من الشعور.

وعاد ليتأملها من جديد، وهو يسأل نفسه فيما إذا كان ينبغي عليه أن يجود عليها ببضع فلسات!

فقد لاحظ منذ جلوسه هنا، أنها لم تحصل على فلس واحد من المارّة الذين يعبرون من أمامها.

وعاد ليقول ولكني مفلس أنا الآخر، وبالكاد أتدبر شئون حياتي منذ ستة أشهر، بعد أن خسرت وظيفتي.

ولكنه قرر في النهاية أنه سيقدم لها بضع فلسات، حالما ينتهي من احتساء قهوته، ويهم بالمغادرة.

لقد مرّ في هذه اللحظات بالصراع الذي يعيشه معظم بني البشر، حيث تصطدم أنانيتنا بحبنا للخير، ليندلع ذلك السجال بين رغبتين أصيلتين فينا، وكل نزعة منهما لديها القدرة على تبرير فعلنا الذي تدفعنا إليه، لنبقى حائرين بين حب الذات وحب العطاء، إلى أن يتخذ كلاً منا قراره وفق قناعاته.

لحظات، ومرت من أمام عاطف طفلة صغيرة، يبدو عليها أنها قد تجاوزت السادسة من عمرها، ويظهر عليها البؤس هي الأخرى بالنظر إلى هيئتها، بذلك الشعر المتروك على حاله دون تهذيب، وبتلك الملابس الرثة والمهترئة، والحذاء الذي يبدو بمقاس أكبر من قدميها، بحيث فرض عليها مقاس الحذاء الواسع نمط سير معين.

وكانت تحمل بين يديها دمية متسخة، فقدت إحدى ذراعيها، وبملامح مبتسمة، لم يدرك صانع الدمية حينها، بأن مصيرها سينتهي بين يدي طفلة، لا تملك هي نفسها رفاهية الابتسام.

كانت ملامح الطفلة تشبه تلك المتسولة التي تجلس بالجوار.

ولم يقصد عاطف ملامح خلقتها بالتحديد، إنما بنفس ملامح الشقاء والجمود.

تقدمت الطفلة وعاطف يراقبها، واقتربت وجلست بجوار السيدة المتسولة، وأدخلت الطفلة يدها في جيبها، وأخرجت بضع فلسات، ووضعتها في يد السيدة.

أدرك عاطف حينها، أن تلك الطفلة هي ابنتها بالفعل، وربما كانت تتجول بالجوار للحصول على بضع فلسات من المحسنين، وها هي تعود حاملة القليل منها.

لقد كانت أوفر حظا من والدتها التي لم تحصل على شيء منذ أن جلس عاطف بالمقهى، وبدأ بمراقبتها.

وكأن كل مظاهر البؤس وملامح الشقاء البادية على ملامحها،

غير كافية لإقناع الآخرين بمدى حاجتها وعوزها..!

استدارت السيدة نحو حقيبة صغيرة بجوارها، واخرجت رغيف من الخبر، وناولت الطفلة كسرة منها، وشرعا في تناولها.

أثار منظر الأم والطفلة مشاعر عاطف، وهو يراقبهما يتناولان ذلك الخبز الجاف، والذي يشكل الحد الأدنى الذي يمكنه إشباع جوع أي إنسان آخر، اعتاد على حصة أكبر من الطعام.

دقائق، ومر رجل عجوز، يحمل بيده سلة صنعت من القش، يبيع فيها حلوى للأطفال، من ذلك النوع الذي على شكل قرص كبير، وبمقبض من العود.

وما أن رأت الطفلة منظر تلك الحلويات؛ حتى بدأت في شد ثياب والدتها بإلحاح، والإشارة نحو البائع الذي يمر من أمامهم مرور السحاب.

لم يكن عاطف قادراً على سماع الحوار الدائر بينهم، نظراً لبعد المسافة، ولكن كانت الطفلة تلح على والدتها بالطلب، ووالدتها ترد عليها بملامح حازمة تارة، وبالتجاهل تارة أخرى.

وبالتأكيد أن الطفلة كانت ترغب في الحصول على واحدة من تلك الحلويات.

سار بائع الحلوى بشكل منهك وبطيء، ولكنه تجاوز المكان الذي كانت تجلس فيه المتسولة على أي حال.

وهنا بدأت محاولات الطفلة تزداد، خوفاً من مغادرة البائع.

فما كان من الأم إلا أن استجابت لطلب طفلتها، وأخرجت بعض الفلسات وناولتها الطفلة.

قفزت الطفلة من مكانها، وأسرعت خلف الرجل العجوز حتى أدركته.

وعادت تمشي ببطء شديد، وهي تلعق قرص الحلوى بلسانها، وعاودت الجلوس بجوار أمها بصمت.

نظرت أمها إليها، وعيناها تفيض بالحب والحنان، وبدأت تتابع طفلتها وهي تلعق الحلوى بلسانها، بينما تمسح على رأسها.

لقد مرت الأم للتو بنفس ذلك النزاع بداخلها.

النزاع الذي يجعلها مترددة، بين الاحتفاظ بتلك الفلسات

لشراء ما قد يبدو أكثر أهمية، أو شراء الحلوى التي تجعل من طفلتها سعيدة، لتتغلب عليها عاطفة الأم في النهاية، وتشعر بشعور الرضا الذي كان واضحاً في نظراتها تجاه طفلتها، وهي منهمكة بتناول الحلوى.

كانت الطفلة تتناول تلك القطعة من الحلوى بنهم، غير مدركة بأن تلك الفلسات التي دفعتها نظير الحصول عليها، كانت تساوي الكثير بالنسبة لأمها التي أهدرت نظير جنيها الكثير من اعتزازها بالذات.

وتساءل عاطف، لم لا تفكر هذه السيدة في بيع بعض (الخرداوات) على سبيل المثال بدل التسول!

ذلك قد يكون أكثر حفظاً لكرامتها، بدل الجلوس بهذا الشكل، والتسول لاستجداء عاطفة الآخرين!

فجأة بدأ ذاك الرجل المسن الذي يجلس على الطاولة المجاورة بالسعال بشدة، ودون توقف، مما جعل جميع من يجلسون بالمقهى يلتفتون بأنظارهم باتجاهه، وأسرع النادل من داخل المقهى نحوه، وناوله كوباً من الماء، وساعده في تناوله للتهدئة من سعاله.

وبالفعل، فقد هدأت نوبة السعال قليلاً بعد تناوله لكوب الماء، واسترخى بعدها لبرهة، ثم نهض الرجل العجوز واعتمر قبعته، وبدأ ينصرف بخطى ثقيلة.

عاد عاطف والتفت باتجاه السيدة وطفلتها، ليجدها قد نهضت من مكانهما، وبدأت بالابتعاد مع طفلتها، وعاطف يراقب ابتعادهما حتى غاب كليهما بين حشود الناس التي تسير على الرصيف.

شعر عاطف بالندم، لأنه لم يتمكن من منحها الفلسات التي كان قد قرر أن يجود بها عليها، ووجه اللوم لنفسه لأنه تلكأ في تقديمها، وآثر تأجيل الأمر لوقت انصرافه، وها هي تغادر الآن.

وللتخفيف من ندمه؛ ابتسم ابتسامة ساخرة، ليحدث نفسه قائلا: وما الفرق الذي كانت ستحدثه فلساتي تلك، في مواجهة بؤسها!

لفت انتباه عاطف صوت قرقعة تصدرها عجلات عربة، وهي تقترب نحوه، ورجل يقوم بدفعها من الخلف، ولم يكن سوى بائع تفاح متجول، اعتاد عاطف على رؤيته يتجول في هذه الأنحاء باستمرار.

واستوقفه رجل عجوز من المارة، لشراء القليل من التفاح، وأخذ المشتري يتفحص كل تفاحة حبة، حبة، قبل أن يضعها داخل الكيس، وما إن فرغ؛ حتى ناول الكيس للبائع، حتى يقوم بوزن تلك الكمية، وطلب منه البائع نظير ذلك ثلاثين فلساً.

وهنا، بدأ المشتري في مساومة البائع على قيمة التفاح، طالباً إياه بتخفيض القيمة إلى خمسة وعشرين.

وبدوره رفض بائع التفاح تخفيض المبلغ، وطال الجدل بينهما على الخمسة فلسات تلك، التي لن تغني البائع، ولن تسمن المشتري من جوع.

ولكنها العادة التي جرى الناس عليها، بوجوب المساومة قبل الشراء، وإن كان المبلغ الذين يساومون عليه لا يمثل الكثير.

إنه مبدأ المساومة، أو ربما عقيدة المساومة الغالبة في كثير من التعاملات بين البشر، والتي لا تقتصر على التعاملات التجارية فقط؛ بل تطال علاقات الحب، والصداقة، والعطاء المشروط، والمساومة على الأحلام، وحتى على الحق المشروع، فما يهم في الأمر، هو القدرة على انتزاع أكبر قدر من التنازلات، ليشعر أحدهم بالانتصار على الآخر.

وبعد أن استمر جدال البائع والمشتري للحظات، قرر المشتري عدم شراء التفاح، لأن البائع رفض التخفيض، وترك الكيس من يده وغادر مبتعداً، وعاد بائع التفاح للدفع بعربته، قاطعاً الطريق إلى الناحية الأخرى.

ابتسم عاطف، وهو يرا ذلك الموقف، وهو من كان يتساءل منذ دقائق، لمَ لا تقوم السيدة المتسولة ببيع بعض الأغراض على الرصيف، بدلاً من التسول.

وأدرك بأنها لم تكن لتجني الكثير من المال، فأمامه مثال حي على ذلك، وإن كان لا زال يظن أنه من الأفضل لها أن تمارس عملاً، بدلاً من التسول.

لحظات، وسمع عاطف صوت ضجيج مرتفع، ناتج عن عادم أحد السيارات الرياضية التي تصدر مثل هذا الضجيج.

وبدأ صوت الضجيج يقترب بسرعة، وكأن السيارة تتوجه نحو المكان.

وبالفعل، فقد ظهرت سيارة رياضية زرقاء اللون فجأة، وهي تسير بسرعة كبيرة في الشارع.

وما أن رأى بائع التفاح الذي كان يقطع الشارع السيارة تتوجه نحوه بسرعة؛ حتى حاول هو الآخر الإسراع بدفع عربته لتجنب اصطدام السيارة بها، فانزلقت قدمه، وانقلبت عربته بعد أن تجاوزته السيارة.

لقد تناثر كل التفاح الذي كان فوق العربة على الأرض، وبدأ الرجل يسرع بجمع ما يمكنه جمعه، قبل أن تدوسها السيارات التي تعبر الشارع.

وعلى أي حال فذلك ما حصل، وقد أتلفت السيارات كمية لا بأس بها من التفاح.

استدعى عاطف النادل ليدفع ثمن فنجان القهوة، وهم بالمغادرة.

سار بين حشود الناس، وهو يراقب وجوههم.

ففي كل وجه تقرأ قصة، وتستوقفك أسرار تلك الملامح البائسة، أو حتى المبتسمة، فلكل منهم حياة خاصة به.

والناس من حوله تسير باتجاهات مختلفة، منهم من يتوجه لإنهاء عمل، ومنهم من يسير للقاء حبيب، ومنهم من هو في طريقه نحو المستشفى لتلقي العلاج، وبينهم اللص الذي يعمل

على سرقة أموالهم وأحلامهم، ومنهم من هو مثله خرج لمجرد التسكع، ويسير دون هدف محدد وواضح.

استمر عاطف بالسير، حتى لاحظ وجود عدد كبير من الناس يتجمعون على الرصيف في كلا الجانبين.

اقترب من المكان، ليجد تلك السيارة الرياضية، وقد اصطدمت بأحد أعمدة الإنارة على الرصيف، وفي منتصف الطريق يتمدد جسد، جزء منه مغطى بملائة، ويظهر يد سيدة من تحتها، وبجوارها تجلس طفلة صغيرة على ركبتيها.

امسك عاطف رأسه من هول الصدمة.

لقد كان الجسد، جسد تلك السيدة المتسولة التي أرادت الأقدار أن تصدمها السيارة الرياضية، وتنهي حياتها على هذا الطريق.

وقف عاطف مذهولاً، وهو يراقب المشهد.

لقد كانت الدماء تنتشر على الأرض حول جثة السيدة، وتلطخ قميصها ذو اللون الأحمر -الذي كان باهتاً قبل قليل- ليستعيد بعضاً من لونه الأحمر الزاهي الآن، من دماء تلك المسكينة.

كانت الطفلة لاتزال تمسك بقطعة الحلوى تلك بين يديها، وبجوارها دميتها على الأرض، بوجهها المبتسم.

ودموع الطفلة تنساب على وجنتيها بخشوع، وبالرغم من حزنها وبكائها، فقد كانت لاتزال تقوم بلعق الحلوى بين الحين والآخر، ممزوجة بالدموع، كحال كل المعدمين، الذين تختلط دموعهم، بكل تفاصيل حياتهم.

كانت الحلوى تلك، هي آخر ما منحته إيها أمها، ليبقى طعمها الحلو، كذكرى ممزوجة بمرارة الحياة على شفاه البائسين.

وشعر عاطف بالندم مجدداً، لأنه تردد، حين فكر في إهداء الوردة إلى السيدة كما كان ينوي في البداية، فلعلها كانت ستجعلها تبتسم ولو لمرة واحدة، وأخيرة.. مرة واحدة، أخيرة.

كانت بضع فلسات تتناثر على الأرض بجوار السيدة، والتي تطايرت في المكان جراء الاصطدام بها.

بضع فلسات، بالكاد تكفي لوجبة غداء.

بضع فلسات، أهدرت كرامة إنسان، ليتمكن من الاستمرار في الحياة.

وهل هي مجرد فلسات فعلاً، أم هي في حقيقة الأمر أحلامها المتناثرة!

لقد ماتت المتسولة، وماتت معها إنسانية مدينة بأكملها، تخلت عنها، وتركتها، وتجاهلت كل بؤسها.

تُرا.. كم مرة سمعنا عن قصص المتسولين الذين ماتوا، وخلفوا من ورائهم ثروة مخبأة في أرضية منازلهم..!، ولكننا لا نسمع أبداً، بقصص الآلاف، ممن ماتوا منهم، وهم يمسكون بطونهم الفارغة جوعاً.

# دوفا

لم تشهد البشرية فظاعة مماثلة في حجم الدمار، وعدد القتلى، كما جربتها الدول المشاركة في الحرب العالمية الثانية، حيث بلغ عدد القتلى في كلا جانبي الحرب، ما يزيد عن سبعين مليون إنسان، وعشرات الملايين من المشردين.

لقد زج بملايين الجنود إلى جبهات القتال في ظروف صعبة للغالية، والبعض قضى سنوات الحرب بين تلك الخنادق تحت الأمطار والثلوج، وربما البعض منهم كان يحسد من سقط قتيلاً في المعارك، لأنه قد تخلص من هذا العذاب.

أحداث قصتنا ستبدأ في شهر أبريل من عام ١٩٤٣م، أي قبل نهاية الحرب بعامين، وتتناول قصة الجندي الألماني هاينز براون (Heinz braun) الذي تم استدعاؤه للتجنيد مؤخراً لأداء الخدمة.

كان هاينز يبلغ من العمر ٢٣ عاماً، ويمتلك حقله الصغير الذي يعتاش منه، وينفق على زوجته دوفا (dova) التي تصغره بعامين.

بات هاينز ليلته الأخيرة، وهو يحتضن زوجته دوفا، وطفلهم ادولف (adolf) الذي يبلغ من العمر ثلاث سنوات.

لم يسبق وأن شعر هاينز بقيمة الزمن، مثل ما كان يشعر به في هذه الليلة بالتحديد، فقد بدت له كل ثانية ثمينة، ولا يمكنه التفريط بها، والابتعاد عن دوفا وأدولف.

كلاً الزوجين شعر بشيء ثقيل يقبع على صدره، ولا يمكنه السيطرة على هذا الإحساس البغيض.

لقد كان الاثنان يحبون بعضهم، وكان طفلهم أدولف مصدر سعادة كبيرة بالنسبة إليهم، وهو بدوره طفل يتسم بالمرح والجاذبية، ويبرع في استخدام طفولته، لكسب حب واهتمام والديه.

لم يتمكن هاينز ودوفا من النوم تلك الليلة، وهم يشعرون بأوجاع الفراق الذي يقترب؛ مع كل خطوة تخطوها عقارب الساعة، ومرت تلك الليلة كئيبة، باردة، رغم أنها ليلة دافئة.

بدأ هاينز يتساءل، عن المعنى الحقيقي الذي تمثله هذه الحرب بالنسبة إليه، ولم قد يكون طرفاً في مواجهة، لم يتسبب هو في إشعالها، أو حتى لا يدرك أهدافها.

شعر بأنه يشبه القربان الذي يسوقه أحد الكهنة للتضحية به في طقس ديني، دون أن يدرك ذلك القربان، لم يجب عليه أن يكون ضحية، نتيجة معتقدات ذلك الكاهن!

وطرح تساؤلاته تلك على زوجته، علّه يسمع منها ما يقنعه بضرورة أن يخوض تلك المعارك.

ولكن لم يسمع منها سوى التأوهات التي لا تدل سوى على الحيرة والارتباك، خلف ملامحها، التي بدت كئيبة كالظلال، في أحد لوحات العصور الوسطى.

وما جدوى الإجابات التي قد يجدها على تساؤلاته، وهو لا يملك حق تقرير مصيره.

فهو بعد ساعات، سيتحول إلى مجرد مجند، يحمل رقماً يدل على هويته لا أكثر.

وفي الصباح الباكر، نهضت دوفا وتوجهت نحو المطبخ لإعداد وجبة الإفطار لهاينز.

وبدوره نهض هاينز، وارتدى بدلته العسكرية استعداداً للمغادرة، واللحاق بقطار العاشرة، الذي سينقل كافة أفراد الدفعة المجندة إلى المعسكر.

جلس هاينز على المائدة، وجلست دوفا على المقعد المقابل.

نظر إليها هاينز وتامل ملامحها قليلاً، ثم طلب منها أن تقترب، وتجلس على الكرسي الذي بجانبه.

تفهمت دوفا ما يعنيه ذلك، وبالفعل فقد انتقلت للجلوس على المقعد المجاور لهاينز.

جلس الاثنان يتناولان طعام الإفطار في صمت شديد، وكأن الوقت قد انتهى بالنسبة لأي كلام قد يقال، ولم يتبقَ سوى الصمت، ليزيد من بؤس تلك اللحظات.

انتهيا من تناول الفطور، وخرج هاينز يحمل حقيبته، وتبعته دوفا وهي تحمل أدولف بين ذراعيها.

توجه الاثنان إلى منزل العم كارل ( karl ) الذي يمتلك عربة تجرها الأحصنة، وذلك ليتولى نقلهم إلى محطة القطار التي في البلدة القريبة، والتي تبعد مسافة ساعتين من قريتهم.

وضع هاينز حقيبته فوق العربة، ثم أمسك بيد دوفا ليساعدها على الصعود، وبعدها قفز هو فوق العربة، وانضم إليهم لاحقا شاب آخر من نفس القرية، يتوجه لأداء الخدمة كذلك.

استمر هاينز طوال الطريق يحتضن زوجته وابنه، بينما لا يكف العم كارل عن سرد القصص عن مجريات الحرب، التي تدور في جبهات القتال.

كان كارل يبرع في تصوير تلك القصص، كقصص ملاحم وبطولات، أبطالها الجنود الألمان، بينما مجرد سماع تلك القصص، كان يزيد من خوف دوفا، وهي التي تمشي في هذا الطريق لوداع زوجها، المتوجه لخوض تلك المعارك.

ولم يكف أدولف كذلك طوال الطريق عن مشاغبة والده، والعبث بزيه العسكري، في تصرف بريء.

وهاينز لا يكف عن ضمه إليه وتقبيله.

ما أجمل الطفولة البريئة، التي لا يمكنها الشعور بكل ما في الحياة من تفاصيل مؤلمة ومرعبة أحياناً، تلك الطفولة التي يتمنى من يعيشها إلى أن يجتازها بسرعة، ليكبر ويتمتع بكامل حريته بالتصرف، بعيداً عن قيود الكبار ومحاذيرهم

التي يخوفون بها الصغار، بينما يحسدهم الكبار على تلك الطفولة، ويتمنون لو أنهم يتمكنون من العودة إليها مجدداً، بعد تجربة المعنى الحقيقي لأن تكون شخصاً راشداً.

وصلت العربة إلى محطة القطار في تمام الساعة ٩:٣٠، وكانت المحطة مزدحمة بعدد كبير من المجندين المتوجهين إلى المعسكر، بينما رافقتهم عائلاتهم للوداع.

ما أقسى تلك اللحظات، حين ترا بعينك، ألم الخوف من الفراق، وهو يرتسم بكل بشاعته على ملامح الجميع في مكان واحد، وفي زمان واحد.

لفت انتباه دوفا سيدة عجوز، تجلس محتضنة شاباً بجوارها، وتمسح على رأسه، ومن ثم تمسك رأسه بكلتا يديها وتقبله قبلات متتالية.

لم يكن المشهد شاذاً بين هذه الحشود، فالجميع يعبر عن شعوره بطريقته الخاصة، ولم تشك دوفا، بأن جميع من كانوا هنا لم يحظوا بنوم عميق ليلة البارحة، كحالها هي وزوجها.

في هذه الأثناء، أطلق القطار صافرته الكئيبة، ونزل عدد من ضباط الجيش من المقطورات، وهم يطالبون جميع المجندين بالصعود.

تبع ذلك، تعالي صوت النحيب من الأمهات، والزوجات المتواجدات بالمكان، بينما هرول المجندون باتجاه البوابات للصعود.

وبدأت المحطة ببث تسجيل للموسيقى العسكرية، لبث الحماس في نفوس الجنود.

كان الضباط يصيحون بالجميع للتعجيل بصعود القطار، واستغرق الأمر قرابة النصف ساعة، صعد خلالها عدد من المجندين، في حين لايزال هناك آخرون لم يكتفوا بعد من الوداع.

نظرت دوفا باتجاه هاينز، وعيونها تبوح بحجم القلق الذي كانت تشعر به حينها، ومر خلالها أحد الضباط من أمامهم، وتوقف ونظر إلى هاينز بنظرة حادة، ووجه إليه كلمات صارمة.

**"تحرك بسرعة.. ليس هناك المزيد من الوقت لهذه المشاعر الآن"**

شعر هاينز ببعض الارتباك، وحمل حقيبته واحتضن دوفا وأدولف لمرة أخيرة، وأبتعد بعدها وهو يركض، ويلتفت خلفه للنظر نحوهم، وهو يلوح بيده مودعاً.

صعد هاينز إلى المقطورة وغاب بين الزحام، ودوفا تحمل أدولف بين ذراعيها، وتراقب جميع نوافذ المقطورات للبحث عن هاينز، حتى ظهر لها من أحد النوافذ، ووقف يتأملها.

أطلق القطار صافرته الأخيرة، وبدأ بالتحرك ببطء، وهو يزيد تدريجياً من سرعته والابتعاد، وكأنه يسافر نحو الظلام.

وكل ما مر القطار بجوار الأشجار التي تنتصب على جانبي السكة الحديدية؛ اهتزت بقوة، وتناثرت بعض أوراقها

وتساقطت بعيداً عن الشجرة الأم.

وكأن القطار قد صمم خصيصاً لينتزع كل شيء من جذوره، وابعاده عن المكان الذي ينتمي إليه.

ودوفا تشعر بتلك الاهتزازات التي يحدثها سير القطار على الطريق تسري في جسدها، وكأن الرعشة التي تنبثق من أعماقها لم تكن كافية بالنسبة إليها.

وقفت دوفا لدقائق بعد أن غادر القطار، وهي تتبعه بنظرها حتى غاب.

بدأ أدولف يردد كلمة **"بابا"** عدة مرات، وهو يشير بيده الصغيرة نحو القطار الذي رحل بوالده للتو، وكأنه يود أن يسأل أمه إلى أين ذهب والدي؟.. ويأمل في أن يحصل على إجابة، وهو غير مدرك لحقيقة أن أمه لن تتمكن من الإجابة على تساؤلاته، لأنها وبكل بساطة، لا تملك إجابة هي الأخرى.

احتضنت دوفا طفلها، وبدأت بالبكاء حتى انهارت، ولم تتمكن من الوقوف على قدميها، وهوت على الرصيف بركبتيها وهي تبكي.

وأدولف يردد **"ماما.. ماما"** ويمسح دموع والدته، ويقوم بأداء بعض التعبيرات المضحكة والبريئة بوجهه الصغير.

حتى الأطفال بوسعهم الإدراك بأن أحدهم يتألم، وإن لم يتمكنوا من إدراك حقائق أخرى كثيرة في الحياة.

فمشاعر الألم، عادة ما تكون عنيفة، وواضحة على ملامح الناس، ويكفي أن تكون الدموع شاهداً على ذلك الشعور.

شعرت دوفا بأحدهم يضع يده على كتفها ويشد عليها، فالتفتت لتنظر من يكون.

كانت تلك السيدة العجوز التي شاهدتها دوفا منذ قليل، وهي تودع أحد الشبان.

ونزلت السيدة العجوز لتجلس على ركبتيها بجوار دوفا، وقالت: **"خففي عنك يا ابنتي.. لقد جربت هذا الشعور لعدة مرات، وها أنا اليوم أعود لتجربته مجدداً"**

حاولت دوفا كفكفة دموعها، ونظرت باتجاه السيدة العجوز، ووجهت لها سؤال: **"هل كان ذلك الشاب ابنك سيدتي؟"**

ردت السيدة العجوز: **"هو في الحقيقة حفيدي الوحيد.. لقد فقدت أبنائي جميعاً في الحرب العالمية الأولى، ولم يتبقَ لدي سوى حفيد واحد، وها أنا أودعه الآن، ولا أعلم هل سيعود، أم أني سأفقده هو الآخر.. كما أنني لا أعلم، هل سأعيش حتى أراه مجدداً، إن كتب له أن يعود حياً من هذه الحرب!"**

دوفا: **"كم ابناً فقدتي في الحرب سيدتي؟"**

ضحكت السيدة العجوز ضحكة ساخرة، وقالت: **"كان لدي ثلاثة من الأبناء، فقدتهم جميعاً"**

نظرت السيدة العجوز نحو أدولف، وقالت لدوفا: **"لديك طفل جميل.. هل تسمحين لي بحمله قليلاً"**

لم تعترض دوفا على طلب السيدة العجوز، ومدت إليها أدولف.

قامت السيدة العجوز بحمل الطفل، وبدأت في ملاعبته قليلاً، ثم نظرت في عينيه وقالت: **"أنك تملك عينين جميلتين، تشبه زرقة السماء.. أتمنى ألا تختبر الأجيال القادمة مرارة الحروب.. الحرب شيء قاسي.. قاسي جداً يا بني"** توقفت السيدة عن الكلام للحظات، ونظرت نحو دوفا، وتابعت الكلام: **"إنها الحالة التي يتوجب فيها على كل من يخوضها، أن يقتل لكي يعيش.. يقتل ويستمر بالقتل.. إنها الساحة التي تعيدنا إلى وحشية النفس البشرية التي تتوق للقتل، وتجد المتعة في ذلك.. يطلق رصاصة باتجاه جسد واحد، ولكنه يقتل بتلك الطلقة أحلام عائلة بكاملها، كانت تنتظر بشوق عودة حبيب"**

قبلت السيدة أدولف، ثم أعادته لوالدته.

لحظات، وجاء العم كارل يبحث عن دوفا ليعيدها إلى المنزل، فقد مر وقت على مغادرة القطار، وهي لا تزال جالسة على الرصيف.

وفي هذه المرة، كان على دوفا أن تعتمد على نفسها في صعود العربة، فقد غاب الآن عنها رفيقها، وسوف تفتقد منذ هذه اللحظات دعم ومساعدة الإنسان الذ كان بجانبها دائماً، ويتولى هو مسئولية العديد من الأمور.

الليالي التي تلت ذلك اليوم كانت قاسية للغاية على دوفا، فهي تعيش في منزل منعزل بعيد كبقية منازل القرويين، وكحال كل البيوت في هذه القرية، التي تتناثر بيوتها بين الحقول.

وكانت تفزع ويصيبها الرعب، بمجرد سماعها لأي صوت يصدر من خارج الكوخ، وتضل الليالي مستيقظة، غير قادرة على النوم، بينما في الصباح عليها أن تهتم بشئون المنزل والحقل، وزراعته وسقايته، وجني بعض الثمار، والتوجه بها إلى البلدة لبيعها، لتتمكن من سد احتياجاتها.

انقضت عدة أسابيع، ودوفا تترقب أي أخبار قد ترد إليها من هاينز، فقد عاهدها بأنه سيكتب لها كل أسبوع، ليطمئنها على أموره، وها هي قد مرت ثلاثة أسابيع على رحيله، دون أن تتلقى أية أخبار.

وبدء قلقها يزداد، وحالتها الصحية والنفسية في تدهور مستمر، ولأول مرة كانت دوفا بدأت في متابعة أخبار الحرب عبر الراديو.

عادة ما يهتم الرجال بأمور الحرب، ومتابعة أخبار المعارك، وتكتفي النساء بالاستماع إلى إيجاز عن تلك الأخبار من أزواجهم.

ولكنها الآن مضطرة لأن تتابع كل الأخبار بنفسها.

وكلما استمعت لنشرة الأخبار؛ كان قلقها يزداد، فهي تتابع أخبار المعارك على كل الجبهات، الشرقية مع روسيا، والغربية مع جنود الحلفاء، دون أن تملك أدنى معلومة حتى الآن، في أي جبهة يقاتل زوجها.

وفي صباح أحد الأيام، وصل ساعي البريد وهو يحمل معه رسالة من هاينز.

ركضت دوفا نحوه، وهي تتلهف لمعرفة الأخبار التي قد تحملها، وبمجرد أن استلمت الرسالة ركضت مسرعة إلى داخل المنزل، وجلست على الطاولة وبدأت بقراءة الرسالة.

كتب لها هاينز: **"لقد اشتقت إليك كثيراً عزيزتي دوفا، واشتقت لطفلنا أدولف، أني أشعر بقلق شديد حيال أوضاعكم، ولا يمكنني النوم، لقد تم توجيه الفوج الذي تم ضمي إليه إلى الجبهة الغربية، وها أنا منذ أن وصلت إلى هنا، أقوم بحفر هذه الخنادق، التي تمتد كالأفاعي على طول الجبهة، وكأنها تستمر في التمدد لتتمكن من ابتلاع جثث كل هؤلاء الجنود، الذي يسقط منهم يومياً العشرات، في مواجهات ومناوشات صغيرة.**

**الحياة هنا قاسية عزيزتي، إنها قاسية حتى على أشد الرجال، وليس علي وحدي، ولكني أريد أن أصمد واتشبث بالحياة، لأتمكن من العودة إلى المنزل ثانية، عندما تنتهي هذه الحرب.**

**أنني افتقد صوتك هنا، وافتقد دفء كفوفك، وافتقد ضحكات صغيرنا.**

**لا أدري، إلى أي مدى يمكنني تحمل كل هذا! ولكني عاهدت نفسي بأن لا أستسلم.**

**الشيء الوحيد الذي يشعرني ببعض الراحة، هو حين أخرج تلك الصورة التي التقطناها سوياً قبل مغادرتي بأيام، وأتأملها.**

**إني أستمر لوقت طويل وأنا أتأمل ملامحك أنتِ وأدولف في تلك الصورة، لقد كانت ملامحك يا دوفا هي أجمل ملامح رأتها عيني في يوم، وكم افتقدها في هذا المكان البائس.**

**أعدك أني سأكتب لك مجدداً متى سنحت لي الفرصة بذلك، فقد بدا لي بأن مسألة كتابة رسالة بشكل أسبوعي، ليست بتلك الرفاهية المتوفرة على الدوام على جبهات القتال.**

**فليحفظكم الله.. زوجك هاينز"**

كانت دوفا تقرأ رسالة هاينز وعيونها تغرق بالدموع، وتستمر في مسح دموعها لتتمكن من مواصلة القراءة، وكم تمنت ألا تنتهي الرسالة أبداً، وأن تستمر في قراءتها حتى يعود هاينز.

بالرغم من أنها كانت تشعر بالقلق منذ أيام، وتنتظر أن تتلقَ رسالة من هاينز لتشعر ببعض الراحة؛ إلا أنها لم تشعر بذلك الارتياح أبداً.

قبلت الرسالة وضمتها إلى صدرها، وقربت الورقة من أنفها وهي تبحث عن رائحة هاينز فيها، ولكنها لم تجد فيها سوى رائحة الطين، والدم، والبارود، ورائحة الأكباد التي تحترق حنينا للأحبة.

وبدأت دوفا تتابع أخبار الجبهة الغربية باهتمام أكبر، حيث باتت الآن تعلم أين يحارب هاينز.

وانقضت عدة أشهر لم تتلقَ خلالها دوفا سوى بضعة رسائل من هاينز، يحدثها فيها عن ظروف الحياة في الخنادق.

وهي كانت بدورها تبعث له بالرسائل، وترد على أسئلته وتطمئنه على أمورهم في القرية.

في صباح أحد الأيام، جمعت دوفا بعض محاصيلها من الحقل، وتوجهت لسوق البلدة لبيعها.

كان سوق البلدة سوقاً شعبياً، يتوافد إليه جميع الفلاحين من القرى المحيطة لبيع منتجاتهم، وشراء مستلزماتهم.

وتجولت دوفا بالسوق قليلاً، حتى وجدت لها مكاناً مناسباً يمكنها الجلوس فيه، لبيع ما جلبته معها.

مضى بعض الوقت، وتمكنت دوفا من بيع بعض ما تحمله، وتأمل في بيع كل ما جلبته معها، لتتمكن من شراء ما يلزمها قبل العودة إلى قريتها.

لفت انتباهها مرور تلك السيدة العجوز التي قابلتها في المحطة من أمامها، وهي تحمل بيدها سلة تضع فيها بعض المنتجات، وكأنها قد جاءت بدورها إلى السوق لبيع ما تحمله في السلة.

ركضت دوفا خلفها لتلقي عليها التحية، وسؤالها عن حالها، وطلبت منها أن تأتي للجلوس بجوارها، وبيع مع ما تحمله معها.

ومر الوقت وهما يتبادلان الحديث عن مجريات الحرب، ويبتهلون بأن تنتهي قريباً، ويعود جميع الجنود إلى منازلهم.

واتفق الاثنان أن يلتقيا كل أسبوع في السوق، وبالفعل فذلك ما استمر طوال الأسابيع التالية.

إلى أن حل فصل الشتاء، وانقطعت دوفا عن الذهاب إلى السوق.

حل الشتاء بكل ما يحمله من قسوة، وبرد، وأمطار، وكانت دوفا قلقة حيال ما يقاسيه هاينز في جبهة القتال مع هذه الظروف.

جلب الشتاء معه مزيداً من الشعور بالكآبة والوحدة، وكانت دوفا تقضي الساعات وهي تجلس بجانب الموقد، محتضنة طفلها أدولف، ولا يقطع صمت الليالي سوى صوت فرقعات الحطب، الذي يشتعل في المدفئة.

وتلقت دوفا مؤخراً رسالة، كان يتحدث فيها هاينز عن قسوة الظروف في الخنادق، والتي ازدادت سوءاً مع هطول الأمطار، حيث باتت كل الخنادق غارقة بالوحل ومياه الأمطار، وأن الكثير من الجنود قد أصيبت أقدامهم بالتسلخات والالتهابات، نتيجة امتلاء أحذيتهم العسكرية بالماء، وبدوره فقد بات يحاول قدر الإمكان تجنب مواجهة ذلك، ويضطر للجلوس دون حذائه لبعض الوقت، ولكن حتى ذلك يكون صعب التحمل مع الجو البارد.

وانقضى الشتاء الأول لهاينز على الجبهة، وبات الآن من الممكن لدوفا التوجه لسوق البلدة لبيع المحاصيل، بعد أن توقفت عن ذلك خلال فصل الشتاء.

وكان هاينز يرسل لها المال متى سمحت له الظروف بذلك، الأمر الذي مكنها من قضاء الشتاء دون مواجهة ضائقة مالية.

وفي أول زيارة لها للسوق حاولت البحث عن السيدة العجوز، ولكن لم تعثر لها على أثر، وعادت دوفا في الأسابيع التالية للبحث عنها، حتى وجدتها في أحد المرات تجلس في أحد أطراف السوق.

ركضت دوفا باتجاهها مبتهجة، وهي تتلهف للاطمئنان عليها، ولكن لم يسرها ما لاحظته من الشحوب البادي على ملامحها.

فجلست بجوارها لتسألها عن أحوالها.

نظرت إليها السيدة العجوز، والحزن يكاد ينطق في عيونها، وهمست لها: **"لقد فقدت الرابع يا ابنتي"**

لم تتمكن دوفا من تحمل الخبر، وضمت السيدة العجوز إليها وبدأت بالبكاء.

بكت دوفا وهي تسأل نفسها، هل تبكي على ما أصاب هذه السيدة، أم أنها تبكي خوفاً من المصير الذي ينتظر زوجها؟

وبدأت السيدة العجوز بالحديث مجدداً: **" لقد حضر إلى منزلي أحد الضباط كعادتهم في مثل هذه الحالة، لينقلوا إلي خبر مقتل حفيدي.. لقد وقفت عند الباب أتابع خطواته وهو يقترب مني، وأنا أعي تماماً ما الخبر الذي سينقله إلي.. ووقف أمامي يتلو البيان العسكري.. ثم ناولني بعض متعلقاته الشخصية التي كانت بحوزته.. وقدم إلي وسام شرف الشهيد"**

صمتت السيدة ونظرت في عيني دوفا، وواصلت حديثها: **"سالت الضابط، وما عساي أن أفعل بهذا الوسام!.. لقد أرخى نظره حينها ولم يتمكن من النظر إلي مباشرة.. قلت له: إنني أعلق على جدار منزلي ثلاثة أوسمه، وعلى كل وسام منهم مكتوب اسم أحد أبنائي.. وها أنت اليوم تسلمني الوسام الرابع.. تأخذون مني أبنائي، وتعيدون إلي الأوسمة بدلاً منهم!"**

لم تكن السيدة العجوز تذرف أية دموع وهي تتكلم، وكأنها كانت قد استنفذت مخزون الدموع، حين بكت منذ سنوات على فقد أبنائها الثلاثة، ولم يتبقى لديها المزيد من الدموع لتذرفها.

ودعت دوفا السيدة، وعادت إلى منزلها وهي في غاية اليأس والقلق.

ومع مرور الشهور، بدأت الشائعات تنتشر في كل مكان، بأن الجبهة الغربية بدأت تنهار تحت ضغط هجوم جنود الحلفاء، بعد عملية الإنزال التي حصلت على شاطيء النورمندي، والأخبار ترد متلاحقة، بأن جيوش الحلفاء آخذه في التقدم نحو القرية.

وبالفعل فقد نشطت حركة العربات المدرعة في محيط القرية، وبدأ الجيش الألماني في إقامة المتاريس وحفر الخنادق.

وكانت دوفا تجلس لساعات، تتابع أخبار الحرب من خلال الراديو، وقلقها يزداد كل يوم، ومع احتدام المعارك

انقطعت الرسائل التي كانت تصلها كذلك من هاينز، مما زاد الأمر سوءاً.

مرت الأيام ثقيلة وكئيبة على دوفا، فقد مضى الآن أكثر من عام ونصف على انضمام هاينز إلى الحرب، والأخبار الواردة لا تبعث على الاطمئنان.

وفي مساء أحد الأيام، وبينما دوفا تقوم بالعمل في الحقل، لاحظت غبار مركبة تقترب من بعيد، ووقفت تتأملها للحظات، حتى تبين لها أنها إحدى مركبات الجيش.

بدأت المركبة بالاقتراب أكثر، فأكثر، حتى توقفت بجوار منزلها.

تجمدت دوفا في مكانها، وتجمدت نظراتها، وهي تراقب الضابط وهو يترجل من مركبته، ويتبعه أحد الجنود.

أقترب منها الضابط، وتوقف أمامها بكل فخر الجندي الذي يرتدي بدلة عسكرية، وألقى عليها التحية، ومن ثم سألها إن كانت هي دوفا زوجة الجندي هاينز براون؟

ضلت دوفا محدقة في الأفق، وبدأت الدموع تنهمر من عيونها، واكتفت بهز رأسها لترد على سؤال الضابط.

نزع الضابط قبعته ووضعها تحت ذراعه، وأخرج ورقة وبدأ بتلاوتها.

**"ببالغ الحزن، يؤسفنا أن نبلغكم باستشهاد الجندي هاينز براون في ساحة الشرف دفاعاً عن الوطن، منذ ثلاثة أسابيع،**

**لقد كان مثالاً للجندي البطل، الذي قدم روحة في سبيل كرامة وطنه"**

طوى الضابط الورقة وسلمها لدوفا، وارتبك قليلاً وهو يخبرها بأنهم لم يجدوا بحوزته أي متعلقات شخصية يمكنهم إعادتها إليها سوى هذا الظرف، ومده إلى دوفا، ومن ثم قام بإخراج صندوق صغير وناولها إياه.

ابتسمت دوفا ابتسامة ساخرة، وهي تدرك محتوى الصندوق، فهو بلا شك وسام شرف الشهيد.

اعتذر منها الضابط بلطف، وطلب منها أن تسمح له بالمغادرة.

ضلت دوفا متجمدة في مكانها للحظات، ثم قامت بفتح الظرف، لتجد بداخله الصورة الأخيرة التي التقطت لهم سوياً قبل أيام من مغادرة هاينز.

وكانت تلك الصورة، هي الصورة التي رغب هاينز في التقاطها، ليتمكن من الاحتفاظ بها معه في الجبهة.

خرج أدولف راكضاً من داخل الكوخ، وهو يسدد سلاحه الخشبي الذي يلهو به نحو سيارة الجيش الآخذة في الابتعاد.

حتى شعر بنشوة الانتصار، وهو يتخيل بأنه قد تمكن من إصابتها وإحراقها.

واقترب من أمه وهو يصيح: **" لقد فعلتها يا أمي، لقد تمكنت منهم، لقد قتلتهم"**

ودوفا لا تزال واقفة في مكانها.

اقترب أدولف وانتزع الصورة من يد والدته، ونظر إليها وبدأ يضحك بمرح، ويقبل صورة والده، وهو يردد **"بابا.. بابا"** ويشد فستان والدته ويكرر **"ماما.. انظري انه بابا"**

ولم يكن لشيء أن يعيد دوفا لوعيها مرة أخرى؛ سوى صوت انفجارات القذائف التي بدأت تنهال على محيط القرية.

انتفضت دوفا مع سماع صوت أول قذيفة تسقط، واستمرت في الانصات لصوت الانفجارات المتتالية والقادمة من البعيد.

وأدركت حينها، أن جيوش الحلفاء باتوا على الأبواب، وهي تردد مع نفسها: **"لقد أشعلنا هذه الحرب منذ سنوات، ورقصنا حين كنا نحقق الانتصار تلو الانتصار، ونحتل المدينة تلو المدينة، بينما كان الآخرون يبكون أحبتهم، وعلى دمار أوطانهم، وها هي الحرب تقترب منا الآن، ليرقص المنتصرون على جثثنا في آخر مشهد منها"**

# أحلام الصراصير

كان جالساً يستنشق آخر أنفاسه من السيجارة التي بدأ بتدخينها منذ دقائق، وكأنه يفعل ذلك للمرة الأخيرة، أو أنه كان قد اتخذ قراره بأنها ستكون الأخيرة لهذه الليلة.

فجأة صدح صوت دوي عال في الصالون الذي كان يجلس فيه، في شقته المكونة من غرفة معيشة، وغرفة نوم، ومطبخ صغير، ولم يكن ذلك الدوي سوى التنبيه الصادر من ساعة الحائط الكبيرة المعلقة على جدار الصالون، وهي من ذاك الطراز القديم، ذو بندول نحاسي كبير، يستمر في التأرجح جيئة وذهاباً إلى اليمين تارة، وإلى الشمال تارة أخرى، وكأن الساعة بدورها تشعر بنفس الملل الذي كان يشعر به ممدوح في هذه اللحظة، فتحاول تبديد ذاك الملل بهذه الحركة الرتيبة التي تزيد من الشعور بالملل أكثر، فأكثر.

نظر نحو الساعة التي كانت تشير حينها إلى الثانية عشر صباحاً، ثم عاد ليوجه اهتمامه نحو السيجارة التي كان لا يزال يمسك بها بين أصابعه، وهي تجود عليه بآخر أنفاسها

لإرضاء رغباته في استنزافها.

انتهى من تدخين السيجارة، ومن ثم هوى بها إلى داخل منفضة السجائر الكبيرة التي تتوسط الطاولة، لتكون تلك هي مقبرتها، بجوار العديد من مثيلاتها اللاتي سبقوها بتلك التضحية، من أجل إرضاء مزاج سيدهم.

نهض من مكانه، وبدء في لملمة البقايا، وحصيلة اليوم من فناجين الشاي والقهوة، التي كانت لا تزال على الطاولة أمامه.

أطفأ مصابيح المنزل، وتوجه نحو غرفة نومه واستلقى على فراشه، وهوى برأسه المثقل بالأفكار على الوسادة، في روتين يومي لم يتغير منذ سنوات.

وبدأت كل تلك الأفكار الساكنة في رأسه، والممزوجة ببقايا أحلام الأربعين عاماً الماضية من عمره، تنشط وتستيقظ، وكأنها تتعمد ذلك، وتوقت مواعيد استيقاظها بالتزامن مع توقيت نومه.

كان الليل، هو الوقت الذي يحبه ممدوح فيما مضى، لأنه يشعره بالسكون الذي ينسجم وطبيعته، ولكنه منذ سنوات بات يشعر بالتوتر كلما حل المساء، وهو يستشعر باقتراب موعد النوم الذي يمارس معه لعبة الاختباء في كل ليلة، ليستمر ممدوح بالبحث عنه بين أكوام من الهواجس، على أمل أن يظفر به، ولكن عادة ما كان يفشل في ذلك.

فبينما كل الناس ترى الكوابيس في منامها، كان ممدوح يعيش كوابيس الأرق في يقظته.

هذه الليالي لم تكن تختلف عن الليالي السابقة التي كان يعشقها، فهي لا زالت ساكنة، وديعة، وغامضة في بعض جوانبها، تبعث على التأمل والهدوء الذي تحتاجه كل نفس بعد نهار طويل.

ولكن الضجيج بات ينبعث من أعماق نفسه الآن، ويتردد صداه في عقله المثقل بالهموم والقلق، والفرق الآن بعد مضي سنواته الأربعين تلك، أنها باتت ليالي تحيي في داخل عقله الباطن كل هواجسه وأفكاره، لتبدد صمت هذه الليالي بضجيج صاخب داخل نفسه القلقة، ويرافقها إيقاع خافت ورتيب، مصدره حركة عقرب الثواني في الساعة التي يضعها بجواره، والتي اعتاد على أن توقظه كل صباح منذ سنوات.

ثواني تدور وتدور، ويلحق بها عقرب الدقائق في رحلة مرح لا تنتهي، بين عاشقين يتلذذ كلاهما بممارسة تلك اللعبة، حتى يقطع عليهم عقرب الساعة تلك اللذة، معلناً عن بدأ ساعة جديدة، ليبدؤوا رحلتهم السرمدية تلك من جديد، في محاولة ليلحق كلاً منهم بالآخر.

وممدوح يتقلب على فراشة ذات اليمين وذات الشمال، وكأنه يفعل ذلك ليتأكد من أنه لا يزال حياً، وأن بإمكانه الحركة بعد أن قضى وقتاً طويلاً وهو مستلقٍ دون حراك.

وفي حركة لاشعورية، مد يده إلى جواره، وهو يتحسس سطح الفراش، كمن يبحث عن شيء يفتقده، ولكنه تنبه فجأة لمَ كان يفعله، وعادت يده لتنكمش مرة أخرى إلى جانبه، وهي تجر خيباتها، بينما هو يسترجع الماضي، ويعود ليذكّر نفسه بأن الوسادة التي بجواره باتت مهجورة الآن، ومنذ سنوات طويلة.

كانت ليلة صيفية هادئة، تتخللها بعض النسمات الناعمة القادمة من ناحية السهل الممتد في محيط المدينة، التي تغط في نوم عميق.

بدأ ممدوح يسمع ذلك اللحن الذي اعتاد سماعة في مثل هذه الليالي الهادئة، التي يتضخم فيها كل صوت مهما كان خافتاً، ويبدو واضحاً وجلياً بين السكون المخيم.

إنها سنفونية عازف الليل العاشق، الذي يقف تحت نافذة محبوبته ويغازلها بتلك الأنغام، ليغريها بالنزول إليه، أو على الأقل أن تنعم عليه بنظرة حانية من لحظها، لتبث في روحه السكون.

بدأ ممدوح ينصت إليه، وهو يحدث نفسه قائلاً: **"ياله من صرصور مسكين! فحتى هو يشعر بالوحدة في هذه الليلة، ولجأ الى قيثارته وبدأ يعزف ألحانه، لعل النسيم يحمل تلك الأنغام وينقلها إلى مسامع حبيبته المتوارية في هذا الظلام، فيرق له قلبها"**

وبدأ يحادثه ويقول: **"إنني أشعر من مكاني هذا برعشات قلبك الذي يكاد يتفطر شوقاً للقاء، وكم أتمنى ألا تعود خائباً هذه الليلة أيضاً، كليالي كثيرة مضت عليك، وأنت تعزف، وأنا أنصت حتى الصباح، حين تنسحب وأنت تحمل على عاتقك بؤسك، وتمني نفسك بأن يحمل لك الغد فرصة أخرى، علّك تحظى بلقاء"**

واستمر ممدوح يتقلب على فراشه، وهو يحاول طرد تلك الخيالات التي تجوب عقله، وكأن إحداها تلاحق الأخرى

في تسلسل لا ينقطع ولا يهدأ، لتنتقل به كل فكرة؛ إلى فكرة أخرى، وكل ذكرى؛ إلى سطور من ذكريات حياته، وكل خيبة؛ تقفز في بحر من الخيبات، لتغرق فيها محدثة جلبة، في محاولاتها للنجاة بنفسها من الغرق، ويمر الوقت دون أن يشعر به ممدوح، لتعود ساعته العتيقة ذات البندول، والمعلقة على جدار الصالون لتنبهه، بأن الزمن قد قضم ساعة أخرى من هذا الليل المهرول نحو نهايته، من خلال دويها الذي ينبعث على رأس كل ساعة، والتي كانت تفقد شيئا من عنفوانها قبل أن تبلغ مسامعه في حجرة النوم، وهو يتابع في صمت مطبق، كل هذا الكون الذي يستمر بالحركة من حوله، بينما هو يتمدد على فراشه كجثة هامدة.

ولكنه قرر أن ينبعث فجأة، ونهض وجلس على فراشه، وهو يحدث نفسه قائلاً: **"يبدو لي أنني كنت على خطأ، حين ظننت بأنها ستكون الأخيرة لهذه الليلة!"**

نهض عن فراشه وتوجه نحو الصالون، وجلس على الأريكة، وتناول سيجارة أخرى وأشعلها، وبدأ ينفث دخانها من حوله، والسيجارة لا تتردد في بذل نفسها في سبيل إشباع رغباته، وفي كل نفس يستنشقه منها؛ كان يستنزف جزءاً من حياتها القصيرة، وهي بدورها كانت تستنزف شيئاً من عافيته، فيبدأ بالسعال، كمحاولة لإنعاش قلبه الذي يوشك أن يكف عن ضخ الدم في أجزاء جسده.

وكأنها قصة عشق سادية بين عاشقين، يعمل كلاً منهم على إلحاق الأذى بالآخر، ليبلغ حالة من اللذة، حين يشعر بمدى الألم الذي يتسبب به له.

أنهى ممدوح لحظات اللقاء السريع ذاك، وعاد مرة أخرى ليستلقي على فراشه، وقد بلغ به الحال بأن يحلم أحلام يقظة، بأنه بات قريباً من الإمساك بأطراف ثوب النوم، ليتمكن منه بالكامل بعد ذلك.

تنبه إلى أن ذاك الصرصور العاشق، لا يزال يعزف ألحانه دون انقطاع، ودون أن يسمح لليأس أن يتسلل إلى نفسه.

فإن كان الوقت قد قضم نصف الليل؛ فلا يزال هناك نصف آخر متبقي، يحمل الأمل، وقد تكون كل دقيقة قادمة هي لحظة اللقاء المنتظرة، تماماً كما كان ممدوح يأمل، في أن تكون تلك الدقيقة نفسها التي تجعل من أجفانه تعانق النوم.

وعادت الساعة العتيقة لتصدح بصوت دويها، منذرة بأن الليل قد مضى ثلثاه.

وشرع ممدوح يجري عملية حسابية سريعة، بات يتقنها ويبرع في إنجازها بسرعة ليلة تلو أخرى، فيقوم بطرح الساعات التي انقضت من مجمل ساعات الليل، ليحسب الوقت المتبقي له، ليحصل على نتيجة تقريبية للساعات التي قد يحظى فيها بالنوم، وإن كانت لا تزال تلك مجرد توقعات غير مضمونة.

وكأن صديقه الصرصور، يدرك هو الآخر ذلك، واكتسب نفس المهارة في إجراء عملياته الحسابية الخاصة، ليتوقع الاحتمالات المتبقية لديه، فبدأ في الرفع من وتيرة معزوفاته التي كان يقدمها، وكأنه يسابق الزمن.

مر بعض الوقت، ليتوقف بعدها الصرصور عن العزف،

وانتبه ممدوح إلى ذلك، وبدأ بالإنصات جيداً، محاولاً التأكد من أن الصوت قد توقف فعلاً، أم أنه هو الذي لم يعد قادراً على سماعة!

ولكن بعد دقائق، بات ممدوح متيقناً من أن الصرصور قد توقف بالفعل عن العزف، وضل في حالة ترقب، منتظراً إمكانية معاودته للعزف، ولكن ذلك ما لم يحصل.

ارتسمت ابتسامة رقيقة على ملامح ممدوح، وبات يدرك الحقيقة التي تعني بلا شك، بأن صديقه المتيم قد التقى بمحبوبته أخيراً، وبدأ ممدوح يسرح بخياله، ويتصور تلك الشاعرية التي تلف لقائهم، بعيداً عن عين أي عاذل، أو متطفل، أو مفترس مترصد.

وهنا، أخذ ممدوح يتساءل، إن كانت محبوبته بهذا الحسن، ليتحمل هذا الصرصور المسكين كل هذا العناء في سبيل لقاءها!

أم أن الحب لدى أمة الصراصير لا يختلف عنه لدى البشر، فيولد حبهم ضريراً، لا يمكنه إبصار أو إدراك عيوب ونواقص الطرف الآخر؟ ليعاود الإبصار مرة أخرى بعد فوات الأوان!

ثم حاول أن ينظر للقصة من وجهة نظر أخرى هذه المرة، ويتساءل، وماذا إن كانت تلك الصرصورة المسكينة من ذوات القلوب الرقيقة، النقية، والمحبة، والمستعدة للعطاء من أجل من تحب، ويسهل على أي صرصور ماكر أن يعبث بقلبها، ويتركه مهشماً، نازفاً، وفاقداً للثقة في أي صرصور صادق آخر، قد تلتقي به مستقبلاً!

ولكنه عاد ليقول، بأن ذلك لا يمكن له أن يحصل في علاقة حب بين كائنين يعيشان الحياة بمعناها البسيط، ولا يحملان في داخلهم نفساً بشرية تمجد خطيئاتها، وتغرق في أنانيتها.

فلابد أن يكون العشق في عالم الصراصير شعوراً صادقاً وسامياً، يرتقي فوق نزعات النفوس الملوثة بالرغبات، والمصالح، وحسابات الربح والخسارة، ومهووسة بحب الظهور، والتملق لأصحاب الثروة والنفوذ، ولابد أن يكون الحب لديهم متجرداً من خطايا البشر تلك.

ثم عاد مرة أخرى يحاول تخمين مقاييس الجمال التي قد تلفت نظر أحد الصراصير إلى صرصورة أخرى بالتحديد، فهل يحب معشر الصراصير البدينات أم النحيلات؟ أ يحبون الطويلة أم القصيرة!

وهل يمكن لتلك المقاييس بأن تتسبب بأزمة نفسية لدى أي من الصراصير، فتلجأ إحداها لجراحات تجميليه لتشعرها بشيء من الرضا عن الذات!

وفي المقابل، ما الذي قد يلفت نظر صرصورة إلى صرصور بالتحديد، وهل منصب الصرصور أو مكانته الاجتماعية تلعب دورها في هذا الاختيار، وزيادة حظوظه في القبول! أم أن كبرياء الصرصور واعتزازه بذاته؛ كاف لجعلها معجبة بعصاميته!

ثم ماذا عن الأطراف الأخرى، وهل يحق لأي فرد من العائلة أن يبدي رأيه في ذلك الارتباط، فتكون له اليد العليا، ويمتلك حق الاعتراض أو الرفض، متجاهلاً رغبة العاشقين!

وبينما هو مستغرق في تلك الأفكار، ارتفع نداء من بعيد، وتبعه آخر، ثم بدأ الكون يضج بصوت النداء المنبعث من المساجد.

تنهد ممدوح بعمق، وهو يدرك بأن ليلة أخرى انقضت، وهو يحاول جاهداً الحصول على القليل من النوم.

نهض من فراشه، ومشى ببطء نحو الحمام ليتوضأ، وبمجرد دخوله؛ لمح كائنا صغيراً يركض أمامه، وحاول معرفة ما قد يكون!

وبعد أن أضاء مصباح الحمام، تبين له أنه لم يكن سوى صرصور آخر، ولكنه ليس من نفس فصيلة الصرصور العازف؛ بل هو من ذلك النوع البغيض، الذي يعيش في بالوعات المنازل، وينغص على ساكنيها حياتهم.

نظر ممدوح نحو الصرصور، والآخر يحدق باتجاهه، ويحرك شواربه بعجرفة، في تحد واضح لمكانة صاحب المنزل.

وبعدها، بدأت جولة مطاردة بين ممدوح والصرصور، حتى تمكن من حشره في زاوية، وهوى عليه بقدمه، ليشعر بعدها بنشوة الانتصار على هذا الكائن.

واقترب ممدوح من المغسلة ليبدأ بالوضوء، ولكنه رمق الصرصور بنظره أخرى، فوجده لا يزال يقوم بتحريك شاربيه.

شعر ممدوح بالشفقة على حاله، وقال لنفسه: **"لابد وأنه يتألم الآن، ومن الرحمة أن أجهز عليه بالكامل"** وعاد ليهوي عليه

بقدمة مرة أخرى، ورفعها عنه، وأمعن النظر فيه، ليتأكد من أنه قد فارق الحياة بالفعل.

رجع ممدوح باتجاه المغسلة ليبدأ بالوضوء، ولكنه توقف للحظة، ونظر باتجاه الصرصور الذي سلبه حقه في الحياة للتو.

وبدأ يسأل نفسه: **"ترى.. كيف كانت حياة هذا الصرصور؟ هل تمكن من أن يعيش حياة سعيدة، ويستمتع بالأيام القليلة المقدرة له في هذه الحياة، أم أنه كان أحد الصراصير البائسة والكادحة، ومن الذين يتسولون على هامش الحياة؟"**

شعر ببعض الأسى تجاهه، ولكنه عاد يقول لنفسه: لم يكن سوى كائن وضيع، اعتاد أن يعيش على القذارة: ثم استدرك يقول: **"ماذا لو كنت أنا مكانه، هل كنت سأتقبل تلك النظرة الدونية التي ينظر بها الآخرون تجاهي، في حين أنني لست أنا من أختار لنفسه أن يأتي لهذه الحياة على هيئة صرصور، وأن يغادرها كصرصور، دون أن تكون لدية القدرة على تغيير هذه الحقيقة، وهذا الواقع المفروض عليه!"**.

صمت للحظة، وعاد يتساءل: **"ترى.. هل كانت له زوجة تنتظر الآن عودته إليها، وأنا دمرت كل أحلامها، واغتلت سعادتها بتصرفي الطائش هذا، وأنا أتلذذ بإظهار قدراتي التي تتفوق عليه، لأدوسه بهذا الشكل الوحشي، وأشوه كل ملامحه؛ لمجرد أنني أمتلك القدرة على فعل ذلك! في حين أنه لا يمتلك أي وسيلة دفاع ضدي"**

وفجأة تنبه ممدوح لكل تلك الأفكار التي كانت تدور في رأسه،

وتعجب من كل هذه التفاهات التي كان يشغل بها نفسه، وكل تلك الأسئلة السخيفة التي لا يكف عن طرحها!

عاد ممدوح إلى غرفة نومه، وانتهى من أداء صلاة الفجر، وضل جالساً لعدة دقائق على سجادته وهو يردد بعض الأذكار والتسابيح، ومن ثم أوى إلى فراشه؛ وهو يمني نفسه بتحقيق حلمه الذي افتقده طوال الليلة.

ولكنه ضل ممداً على الفراش لساعة أخرى، وهو يلمح انبعاث الضوء من خلف نافذته، ويقول لنفسه: **"لقد طلع الصباح!"**

وحين ينتبه إلى ما كان يدور في رأسه من أفكار، يتساءل متى وكيف انغمست بهذه الفكرة! وأنا من كان يسرح بفكرة أخرى منذ قليل، وكيف يمكنني الإبحار بهذا الشكل، والتنقل بين الأفكار دون أن الحظ ذلك، كمن يلج من باب ويخرج من أخر، ليعود ويجد نفسه يقف أمام باب ثالث ورابع، وكأنني داخل متاهة من الأبواب اللانهائية، والتي تفضي إحداها إلى الأخرى!

وارتفعت الشمس قليلاً، وسمع حينها رفرفة جناحي طائر يقترب من نافذته؛ ويحط عليها.

فتح عينيه ليرى من خلف الزجاج حمامة بيضاء أنيقة، تقف على النافذة، ولحق بها ذكر حمام آخر، وبدأ في نفخ حوصلته، والدوران حولها وإصدار ذاك الهديل، الذي جعل ممدوح يشعر بشيء من السكون وهو يستمع إلى غنائه وتغزله بتلك الحمامة، ويراقب تموجات الألوان التي تلمع على الريش الذي يغطي حوصلته.

أدرك حينها بأن الحب هو غاية كل الكائنات على هذه الأرض، وأن البشر وحدهم هم من يمكنهم الشعور بمشاعر الكراهية والحقد، والنظر بدونية تجاه الآخرين.

نام ممدوح أخيراً، بعد ليلة طويلة؛ اختبر فيها جملة من المشاعر، وأبحر مع كومة من الأفكار، وهو ينصت إلى صوت هديل الحمام، وبدأ يحلم.

رأى نفسه في أحد الليالي؛ يقف في شارع طويل ممتد، ترتفع على جانبيه أبنية من عدة طوابق، والأضواء تنبعث من خلف نوافذ تلك المنازل، وهو يمسك بآلة الكمان ويعزف ألحانه عليها، حين بدأت مصابيح المنازل تنطفئ الواحدة منها تلو الأخرى، دون أن يجد من ينصت لعزفه، حتى أظلم الشارع كله بأكمله، وظل هو واقفاً يواصل العزف وحده في الظلام.

# ثقوب الذاكرة

إنه نفس الطريق الذي مشى فيه منذ ٤٠ عاماً، في طريقه نحو الرحيل.

نفس الأزقة بتعرجاتها التي تخفي في كل زاوية منها حكاية، ونفس أحجار الأرصفة التي لا زالت ذاكرتها تحتفظ بآثار أقدام العابرين.

نفس رائحة المكان وإن اختلفت رائحة الزمن، ونفس أصوات الباعة التي تكسر قيود الصمت؛ بل التي تحاول كسر قيود الفقر والحاجة، وتتمرد على واقع الحياة في هذا الحي الذي يحتضن البائسين.

سار عدنان بخطواته الهادئة وهو يجول بنظره في الأرجاء، وكأنه يبحث عن ماضيه، وذكرياته المطبوعة على جدران هذه المنازل، ويتسلل بروحة من خلال النوافذ المفتوحة ويخرج من خلال ثقوب الأبواب.

ومن يرى سيره بتلك الطريقة الهادئة، وتجوله بالنظر في كل الأرجاء؛ سيظن بلا شك بأنه أحد الذين دخلوا إلى الحي عن طريق الخطأ، ويبحث عن طريقه نحو الخروج.

بينما كان عدنان الذي قد بلغ الـ ٦٥ عاماً الآن، يدرك تماماً إلى أين تأخذه أقدامه، وإلى أي مكان ستقوده تعرجات تلك الأزقة.

توقف أخيراً في أحد الأزقة الجانبية بجوار منزل قديم، وبجانب بابه هناك مسطبة، كحال الكثير من المنازل في الأحياء القديمة، التي اعتاد ساكنوها الجلوس أمام منازلهم بصحبة هذا الجار أو ذاك.

جدار بالكاد يمكنه الوقوف، مرهق من مواجهة الزمن القاسي، والتجاعيد والتشققات ترسم لوحة سريالية على واجهته.

أقترب وجلس على المسطبة، وأسند مؤخرة رأسه على الحائط، أغمض عينيه، وكأنه يمارس طقوس التأمل.

حالة من الانفصال عن المحيط والواقع، هذا هو الشعور الذي كان يمر به.

مال برأسه جانباً وألصق أذنه على الحائط، وكأن الجدار يوشوشه بسر، لا يعرفه سواهم.

وبدأ يستمع فعلاً إلى تلك الوشوشات التي هي أقرب ما تكون إلى همسات بدأت تعلو رويداً رويدا، ليبدأ بسماع صوت طرقات عكاز رجل مسن على الأرض، وهي تقترب نحوه ببطء.

تنهد عدنان بحسرة الحنين وقال: **"يا ألله.. نعم.. إنه هو.. إنه صوت عكاز جدي"**

ذاك المسن، الذي طالما جلس هنا على هذه المسطبة، وهو يمسك بمسبحته المصنوعة من حجر العقيق الأحمر، يمررها حبة، حبة، بين أصابعه، يحمد الله مرة، ويسبحه أخرى، ويعد سنين عمره مع كل حبة يجتازها؛ ليعود إليها مجدداً وهو يقول **"وكلٌ في فلك يسبحون"**.

ويجتمع من حوله أطفال الحي، وينصتون بدهشة إلى قصصه التي كان يرويها لهم عن الماضي، ممزوجة بحكمة السنين.

أخذ عدنان نفساً آخر عميقاً، لتحمل له هذه الشهقة رائحة سرت في جسده بهدوء لذيذ، انتشت معها كل حواسه.

إنها رائحة خبز أمه.

لحظات، وتسللت بضع قطرات من الدموع من بين جفنيه، متناغمة مع حالة الخشوع التي كان يخضع لهات، وهو ينفض كل ذلك الغبار عن الماضي، ويستعيد الوجوه التي رحلت بابتسامتها التي كانت تشعره بالدفء، وأصواتهم التي سكنت الآن في فراغات الزمن.

وفجأة، سمع صوت صرير باب يفتح، ويتبعه صوت نحنحة يعرفها جيداً.

أنه صوت والده، الذي يعود بعد أن يؤم سكان الحي بالجامع في كل صلاة، حاملاً معه بعض متطلبات المنزل.

وسمع صوت وقع أقدامه هو وأخوته، حين يتراكضون نحو والدهم ويتسابقون لتقبيل يده، وتناول الأغراض منها.

ولكن عدنان، وكأنما استفاق من هذا الخيال الذي يغرق فيه، حين شعر بأن أحدهم يقف أمامه!

فتح عينيه فجأة ليرى أحدهم يقف أمامه بالفعل.

كان الرجل يقف أمامه ويتأمله بتعجب! وفور أن فتح عدنان عينيه، توجه له الرجل بسؤال: **"من أنت؟ ولم تجلس هنا أمام منزلي؟!"**

رد عدنان بقليل من التعجب **"وهل هذا منزلك!"**

رد الرجل **"نعم"** ثم عاد يتأمل ملامح عدنان بتعجب، وعاد لقول: **"من أنت؟ تبدو لي ملامحك مألوفة!"**

ومرت بضع ثوان وكلاهما يتأمل الآخر، حين بدت ملامح الذهول على وجه الرجل، ليقول بتعجب: **"عدنان!.. أنت هو أليس كذلك.. أنت عدنان"**

هز عدنان رأسه بالتأكيد، وهو يتأمل ملامح الآخر للحظة، ويعود للقول: **"وأنت ماجد".**

أقترب ماجد عدة خطوات، وجلس على المسطبة بجوار عدنان، وساد الصمت للحظات.

أشاح ماجد بعدها بوجهه إلى الطرف الآخر من الشارع وهو يسأل: **"لمَ عدت؟"**

رد عدنان: **"إنه الحنين للماضي، ولكل من كان فيه، وما كان فيه، الحنين للمكان، وللطفولة، وقل إن شئت لبراءة الطفولة"**

ثم عاد عدنان ليسأل: **"كيف، ومتى، صار منزلنا هذا ملكاً لك!"**

ماجد: **"بعد رحيلك أنت، ومن ثم وفاة والدك، وقيام أخوتك ببيع المنزل للعم جمال، أشترى والدي المنزل من ورثة العم جمال، من بعد وفاته هو الآخر".**

هز عدنان رأسه وهو يعبر عن استيعابه للأمر.

وتابع حديثه بالقول: **"لم يتغير الحي كثيراً منذ رحيلي، سوى أن هناك بعض المباني الجديدة التي بنيت مكان منازل سابقة، وأعمدة الإنارة التي تم تركيبها في الأزقة التي كانت مظلمة دائماً".**

رد ماجد: **"بل الحقيقة هي أن كل شيء قد تغيير، والحي بات أكثر ظلاماً، بالرغم من وجود كل أعمدة الإنارة التي رأيتها"** وتابع ماجد كلامه **" في الماضي كانت الأزقة تغرق في الظلام، وتخف حركة الناس في الشارع في وقت مبكر من المساء، بينما كانت البيوت من الداخل تشع بنور المحبة، أما الآن فالنور يبدد ظلام الأزقة، بينما البيوت تغرق في الظلام من الداخل"**

صمت ماجد للحظات، ثم التفت نحو عدنان وهو يقول: **"أ تعلم!.. مضت سنوات منذ آخر مرة جلست فيها هنا على هذه المسطبة لتبادل الأحاديث مع أحدهم، فلا أحد الآن يجد الوقت الكافي للجلوس والحديث مع أحد، فالجميع مشغول**

**في أمور مختلفة، والجميع يركض داخل عجلة هذه الحياة إما راغباً في ذلك أو مجبراً على الركض فيها، بتنا مجرد فئران نركض داخل هذه العجلة؛ ونحن نظن بأن ركضنا المتواصل سيصل بنا إلى نتيجة ما، بينما الحقيقة، أننا نركض وحسب!"**

أنصت عدنان لحديث ماجد، وبدأ بعدها يحدثه عن الحنين الذي شعر به، ودفعه للعودة لهذا المكان، وقال: **"منذ لحظات شعرت وكأن هذا الحائط يحدثني، ويعيد تشغيل شريط الماضي، لقد سمعت وقع عكاز جدي على حجارة الطريق، وصوت والدي، وشممت رائحة خبز أمي، وسمعت صوت تلك الدقات الناعمة على باب منزلنا بعد كل مرة كانت تعد فيها أمي الخبز"**

تنهد عدنان وتابع **"سلمى.. ابنة الجيران، كانت تأتي لتأخذ من الخبز الذي تعده أمي، وفي كل مرة كنت أشعر بأنها تحمل قلبي فوق أرغفة الخبز الساخنة تلك وتخرج"**

ثم ضحك وهو يقول: **"رغم علمي بأني سأعود لألتقي بها في الزقاق بعد ساعات، لنلعب جميعاً مع أطفال الحي"**

والتفت نحو ماجد وهو يساله: **"أتذكر ذلك يا ماجد؟.. ألا زلت تذكر سلمى؟"** ثم أتبعه بسؤال آخر: **"أ تعلم أي شيء عنها الآن؟"**

كان ماجد ينصت لحديث عدنان دون أن يهمس بكلمة، أو حتى أن يرد على أسئلته.

ولكن كان يبدو على عدنان أنه يتوق للحديث أكثر من رغبته في سماع أي شيء.

وتابع كلامه دون توقف **" كبرنا وكبرت بيننا تلك المشاعر، وبات من الصعب أن التقي بسلمى كما السابق، ولم تعد تأتِ لأخذ الخبز بنفسها، ولم يعد من المسموح لها الخروج للعب مع الصبية"**

ثم ضحك عدنان وهو يقول: **"ولكننا ابتكرنا وسيلة أنا وهي للحديث، فقد أحدثت ثقباً في الجدار الذي يفصل بين منزلنا ومنزلهم، لنتمكن من خلاله من تبادل الرسائل"**

صمت عدنان للحظة، وهمس ببضع كلمات وهو يقول: **"لقد كانت جميلة، رقيقة، لطيفة"**

قاطعه ماجد بكلمة وقال: **"وبريئة، لقد كانت بريئة أكثر مما ينبغي"**

هز عدنان رأسه وهو يوافق ماجد فيما قاله.

عاد ماجد للقول: **"لقد خذلتها يا عدنان، وتركتها لتواجه مصيرها وحدها، لم تكن رجلاً كما ينبغي لك أن تكون، ولم تفعل ما كان ينبغي عليك فعله تجاهها"**

وتحولت بعدها نبرة ماجد إلى نبرة يائسة حين قال: **" كانت أجمل من أن يخدش جمالها أي شيء"**

رد عدنان بنبرة ندم: **"لقد سيطرت علي نزواتي وأنانيتي، أعترف أنني أخطأت كثيراً، وارتكبت العديد من الأخطاء والحماقات في حياتي، ولا أخفي شعوري بالندم والذنب تجاهها"** وتابع يقول: **"كنت شاباً طائشاً، أبهرني البريق**

**الزائف لتلك الأرملة الشابة الثرية، لحقت بها وتخليت عن كل شيء، ظناً مني بأنني سأتمكن من تجاوز البؤس، والحاجة التي كانت أسرتي تغرق فيها كحال كل سكان الحي هذا، ولكني دفعت ثمن خطأي لاحقاً، وقضيت عدة سنوات في السجن بسببها، بعد أن تورطت في أعمال مشبوهة، وكانت هي من أراد استغلالي لهذا الهدف"**

وفجأة توقف ماجد عن الانصات لحديث عدنان، وتجمدت نظراته التي كانت تتجه نحو نهاية الشارع، وبدى عليه بعض الارتباك.

التفت عدنان ليرى إلى ما كان يحدق ماجد، فرأى سيدة قادمة من البعيد، تسير ببطء حاملة بيدها بعض الأغراض.

وماهي سوى لحظات، حتى كانت السيدة تقف أمامهم، وبدى عليها التعب والإرهاق، وكأنها سارت لمسافة طويلة.

ألقت السيدة التحية على ماجد، وطلبت منه أن يساعدها في حمل الأغراض إلى الداخل، دون أن تعير الجالس بجواره أي اهتمام.

بدأ عدنان في تأمل ملامح السيدة جيداً، وهو يخمن بأنها لابد وأن تكون زوجة ماجد بالتأكيد.

نهض ماجد وغاب للحظات، ثم عاد وخرج من المنزل، وجلس في مكانه مرة أخرى.

كان عدنان شارد الذهن، وكأنه يمعن التفكير في مسألة ما، ومن ثم عاد وانتبه ليوجه سؤاله لماجد: **"هل كانت تلك السيدة هي سلمى!؟"**

صمت ماجد، وكأنه يتجنب الرد على السؤال، ولكن عدنان عاد ليسأل: **" متى تزوجتما!"**

رد ماجد: **"بعد رحيلك بأشهر قليلة"**

أراد عدنان النطق بشيء، ولكنه تراجع عن ذلك، وعاد الصمت ليسود بينهما لدقائق من جديد.

كانت المشاعر التي يشعر بها عدنان كثيرة، مرتبكة، ومختلطة، ما بين الحنين، والندم، والحسرة، والألم، والخجل من الذات.

بينما كان ماجد يشعر بشيء واحد، وهي الرغبة في أن ينتهي هذا اللقاء، وأن يرحل عدنان.

وجه عدنان سؤاله لماجد: **"كم من الأبناء لديكم؟"**

رد ماجد بشكل تبدو فيه السعادة على وجهه بوضوح: **"أربعة.. ثلاث بنات، أكبرهن هي فاطمة ثم يسرا وأصغرهن هي نجلاء، وابن واحد هو خالد"**

وبدوره سأل ماجد: **"وماذا عنك أنت؟"**

رد عدنان بحسرة عميقة **"لم أتزوج أبداً"**

تردد عدنان مجدداً قبل الحديث، ولكنه تشجع أخيراً وقال: **"أشعر بالحنين إلى منزلنا، أيمكنني الدخول والتجول فيه قليلاً؟"**

تحرّج ماجد من طلب عدنان، ولكنه لم يمانع في النهاية.

دخل عدنان بهدوء من البوابة الرئيسية، وهو يجر خلفة كل خيبات السنين الماضية، ويرى أمامه براءة الطفولة وأحلامها.

حتى بلغ الفناء المفتوح الذي يتوسط المنزل، وتجول بنظره في كل جانب وهو يقول: **"تلك هي غرفتي، وتلك غرفة والدي، وهنا كان التنور الذي كانت أمي تخبز فيه خبزها، وبالرغم من إزالته الآن إلا أن آثاره لا تزال بادية"**

عاد به الزمن إلى الوراء، وسرح بخياله في المكان وهو يسترجع صوراً وأصواتاً من الماضي.

سار بضع خطوات نحو الحائط الذي يفصل بين منزلهم ومنزل سلمى بنت الجيران.

مرر أصابعه ببطيء، وهو يبحث عن الثقب الذي كان في هذا المكان.

الثقب الذي طالما مرر المشاعر الرقيقة بين قلبين، وحمل الابتسامة البريئة، التي لم يكتب لها أن تبقى بريئة إلى الأبد.

التفت نحو ماجد، والذي كان يقف خلفه ويتابع تحركاته.

تحدث إليه ماجد بنبرة حاسمة، ولكن هادئة **"كان لابد وأن يسد ذلك الثقب وإلى الأبد، كحال كل ثقوب الذاكرة التي تنزف، وتَستنزف"**

استدار عدنان باتجاه الباب وخطى بضع خطوات، ليجد سلمى تقف هناك في البعيد عند أحد زوايا البيت، وهي تنظر إليه

وتحدق في عينه، بملامح باردة لا يمكن فهم مشاعرها من خلالها.

نظر عدنان نحوها، وبدأ يقترب منها، حتى وقف أمامها مباشرة.

قال لها عدنان بنبرة حزينة: **"مرت سنوات طويلة"**

سلمى: **"أجل"**

عدنان: **"أدين لك باعتذار.. ربما سأشعر ببعض الراحة بعد أن أقدمه لك"**

سلمى: **"لم يعد هناك داعٍ للاعتذار.. فالحياة اعتذرت لي نيابة عنك.. وكان أجمل ما قدمتّه لي على الإطلاق"**

أدرك عدنان ما كانت تعنيه سلمى، والتفت نحو ماجد، وسار نحوه بخطوات، وقال: **"أدرك أن الحب الصادق قد يكون أجمل هدية تقدمها لنا الحياة، وأنت كنت كذلك بالنسبة لها"**

خرج عدنان من المنزل، ولحق به ماجد من خلفه، ووقفا للحظات عند الباب.

ماجد: **"هل ستعود مجدداً؟"**

عدنان: **"لا.. لا أظن ذلك"**

ماجد: **"هل تذكر حديثي عن أننا كالفئران التي تدور داخل العجلة؟.. لقد بقيت لسنوات أركض وأركض، ولا زلت أسكن**

**في نفس الحي الذي ولدت فيه، وأسكن نفس المنزل لسنوات، أما أنت؛ فقد ركضت لتهرب من هذا كله، وها أنت قد عدت مجدداً إلى نفس المكان الذي كانت منه البداية"**

عدنان: **"لن أنسى الآية التي كان جدي يرددها باستمرار، وكلُ في فلك يسبحون"**

ثم تابع: **"لم يعد هناك المزيد من الوقت لمزيد من الركض الآن، فالمسافة المتبقية باتت قصيرة جداً، يمكننا قطعها بهدوء"**

ودع عدنان صديقه ماجد، واستدار مبتعداً حتى غاب في تعرجات تلك الأزقة.

ودع ذكرياته، وطفولته، وودع أخطائه وذنوبه، وبات يشعر بقليل من الراحة الآن؛ بعد أن قدم الاعتذار لمن أخطأ في حقها يوماً، ليجدها قد غفرت له تلك الخطيئة.

الثقوب في الجدران يمكن سدها وإخفائها بسهولة، ولكن ثقوب الذاكرة عصية على الطمس دائماً.

# البحر

توجهت نحو الشاطئ وهي تحمل بيدها كتاب، وتعتمر على رأسها قبعة كبيرة، لترخي قليلاً من الضلال على ملامحها الخجولة والناعمة.

كان الوقت لايزال باكراً، وأرادت جمانة أن تقضي بعض الوقت الهادئ في أول يوم إجازة أسبوعية لها في عملها الجديد، وهي كذلك أول زيارة لها للشاطئ منذ أن انتقلت إلى هذه المدينة، فقد استأجرت شقة بالقرب من هنا، وكانت حريصة على أن تكون شقتها بالقرب من البحر.

فهي كانت تتوق دائماً للسكن في مدينة ساحلية؛ لتحظى بمثل هذه الأوقات الهادئة، وتستمتع بنسائم البحر الرقيقة التي كانت تنساب مع نسائم الصبح.

وبالرغم من أن الرصيف لم يكن مزدحماً بالمتنزهين؛ إلا أنها أرادت أن تختار لنفسها مكاناً أبعد ما يكون عن الزحام والضجيج.

جلست على مقعدها، وبدأت تتصفح الكتاب الذي بين يديها، وتحاول إراحة نظراها بين الحين والآخر بالنظر تجاه البحر المفتوح، وتتابع حركة قوارب الصيادين التي تتمايل مع الأمواج، والشمس تمد أشعتها التي تنعكس على صفحة الماء.

تتنقل بأفكارها ما بين الكتاب والبحر، وهواجسها الداخلية، وأحلامها وأمنياتها.

عالم يموج في أعماق نفسها، تماماً كالبحر الذي كانت تتأمله ويبدو هادئاً، بينما يكمن في أعماقه عالم زاخر بالحركة والنشاط.

نسيم لطيف يهب من هنا وهناك بين الحين والآخر، أستغله الأطفال في الجوار ليحلق بطائراتهم الورقية، كما أحلامهم التي لا تزال صغيرة.

أقترب من المكان رجل، وهو يحمل بيده كرسي، وعدة صيد شخصية، يبدو عليه أنه قد تجاوز الستين من عمره، بلحية بيضاء كثيفة يتخللها بعض السواد.

وضع كرسيه بالقرب منها، وبدأ على الفور في إعداد قصبة الصيد، وهي تتابعه، وتتأمل كيفية إعداده للصنارة.

ألقى بصنارته باتجاه البحر، وأشعل سيجارة، وجلس ينتظر بهدوء.

هبت نسمة هواء باردة من ناحيتها، وطارت قبعتها باتجاه الرجل، الذي انتبه لها على الفور؛ وأمسك بها قبل أن تبتعد.

توجهت نحوه، وتناولت منه القبعة وشكرته، وعادت للجلوس على مقعدها.

تعالت صرخات طفل من بين الأطفال الذين كانوا يلعبون بطائراتهم هناك، وبدأ بالبكاء وهو يحدق بنظره إلى الأعلى باتجاه طائرته التي أفلتت من بين يديه، وبدأ الهواء يحملها نحو الأعلى، وهو يراقبها تبتعد، ويتضاءل حجمها كلما ارتفعت أكثر.

التفت جمانة نحوه وهي تراقب ما حصل، بينما استمر الطفل في البكاء دون توقف، وهو يشعر بالأسى والحزن على ما فقده.

نهض الرجل من مكانه وتوجه نحو الطفل، أمسك بيده وأخذ يحادثه، وجمانة تراقب من بعيد دون أن تتمكن من سماع الحوار، والطفل يتحدث إلى الرجل ويشير بيده نحو الأعلى، بينما انشغلت يده الأخرى في مسح دمعاته التي جرت بغزارة على فقد مصدر سعادته.

اصطحب الرجل الطفل نحو أحد الأكشاك القريبة، وأشترى له طائرة أخرى، وانهمك الاثنان في إعدادها، حتى تمكن الطفل من جعلها تطير وترفرف في السماء.

عاد الرجل وجلس مكانه، ونظرت إليه جمانة وقالت: **"كان ذلك لطفاً منك سيدي"**

رد الرجل: **"كان ذلك بمثابة شيء ثمين لطفل بعمره،**

**وأقسى من أن يحتمله قلب طفل صغير، وأصغر من أن يختبر ألم الفقد"**

ابتسمت جمانة، وعادت لقراءة الكتاب.

مضى بعض الوقت، والتفت بعدها الرجل نحوها وقال: **"عنوان ملفت!"**

نظرت إليه جمانة، ثم أدارت الكتاب الذي بيدها ونظرت إلى عنوانه، وهي تقول للرجل: **"هل تقصد عنوان الكتاب سيدي؟"**

رد الرجل: **"بالضبط.. قصدت عنوان الكتاب الذي بيدك"** صمت للحظات، ثم كرر قراءة عنوان الكتاب **"كيف تكون مديراً ناجحاً"** وعاد ليسألها: **"من كم صفحة يتألف هذا الكتاب؟"**

جمانة: **"٢٠٧ صفحة"**

حرك الرجل فمه وكأنه يلوك شيئاً، ونظر نحو الأعلى وكأنه يحاول قول شيء بعد تفكّر، ثم سألها: **"هل تظنين بأن المسألة بحاجة إلى ٢٠٧ صفحة لقول ذلك!"**

جمانة **"بالتأكيد أظن ذلك"** انتظرت بعدها للحظات لتسأل: **"ماذا برأيك أنت سيدي؟"**

رد الرجل: **"برأيي، من الممكن اختصار كل تلك الصفحات بجملة واحدة، وكان الأجدر بمؤلف الكتاب أن يقول: (كيف تتخلى عن عاطفتك لتكون مديراً ناجحاً)"**

بعدها ابتسم الرجل ابتسامة لطيفة، وكأنه يود الاكتفاء بهذا القدر من الرد.

لم يعجب ذلك الرد جمانة، وعادت لمواصلة قراءة الكتاب، ولكنها استغرقت قليلاً في التفكير، وهي تتأمل صفحة الكتاب دون أن تقوم بالقراءة فعلاً، وردت: **"أعتقد أن تلك نظرة سلبية للأمور!"**

رد الرجل بشكل مبهم: **"ربما"**

كان واضحاً أن كلاً منهم ينتمي لمدرسة فكرية مختلفة، وبالتالي لن تلتقي وجهات النظر في نقطة انسجام مريحة لأي طرف، وفضل الاثنان التوقف عن مواصلة الحديث، والانشغال بما جاء من أجله.

وكان الوقت يمر دون أن يحصل الرجل على أي صيد، بينما يقوم بسحب الصنارة من وقت لآخر؛ ليتفقد الطعم المعلق بها، ويعيد رميها في البحر، والجلوس بانتظار أن تعلق سمكة بها.

هبت نسمة أخرى لتحمل قبعة جمانة هذه المرة نحو البحر.

أسرعت جمانة خلفها لتمسك بها، ولكن القبعة سقطت في الماء، وكان الرصيف مرتفعاً للحد الذي لا يمكّنها من التقاطها مرة أخرى.

نهض الرجل من مكانه واقترب منها وهي تتأمل قبعتها بحزن، وعاد إلى مقعده؛ وبدء بسحب خيط الصيد بسرعة.

عاد وأنزل الخيط بالقرب من قبعة جمانة والتقطها بالصنارة.

تناولت منه القبعة وشكرته، ونظر إليها الرجل وطلب منها أن تعود لارتدائها وقال: **"تبدين جميلة حين ترتدينها"**

ابتسمت جمانة بخجل، ولكن لم تشعر حينها بأن ذلك غزل وقح من رجل يكبرها بثلاثين عاماً على الأقل، وكانت تتفهم بانها ملاطفة جميلة لا أكثر.

وعاد كل منهم للجلوس حيث كان، وعاد الرجل ليرمي بصنارته نحو البحر.

نظرت جمانة نحوه وقالت: **"أحب البحر كثيراً"**

رد عليها الرجل دون أن يلتفت نحوها: **"قد تملكين أسبابك التي تجعلك تحبينه، مثلما أملك أنا أسبابي الشخصية لكرهه"**

كان رداً مفاجئاً لجمانة، وتعجبت من هذه النظرة تجاه البحر، والذي ترا فيه كل هذا الجمال والسحر، وأثار رده فضولها لتعرف فقالت: **"لأول مرة أصادف شخصاً يحمل هذا الشعور تجاه البحر!، لم قد تكره شيئاً يحمل كل معاني الجمال التي يشعر بها كل الناس؟"**

لم يجب الرجل على سؤالها، واستمر يحدق بنظره إلى البعيد.

عادت جمانة لتقول: **"بالنسبة إلي هو شيء ساحر، لطيف، ملهم"** ثم صمتت للحظة وتوجهت نحوه بسؤال: **"طالما أنك تكرهه؛ فلمَ أنت هنا وتجلس منذ ما يزيد عن الساعة، وتنتظر أن يجود عليك بصيده؟!"**

رد الرجل: **"إنها رغبة في الانتقام منه لا أكثر"**

وكان هذا الرد، رداً يثير درجة أعلى من التعجب لدى جمانة، فارتسمت على وجهها ملامح الاستغراب، ونظر إليها الرجل وقال: **"نعم، إنني أمارس الانتقام بهذا الصيد، إنني أحاول أن أسلبه أشياءه الثمينة التي يحبها"**

نهضت جمانة من مكانها، وتقدمت بضع خطوات نحوه، وهي تنتظر مزيداً من التوضيح!

أشار إليها بيده نحو المراكب البعيدة وسألها إن كانت تراها؟، ثم قال: **"كان والدي رحمه الله، كهؤلاء الصيادين الذين تنظرين إليهم في البعيد، كان يخرج صباح كل يوم؛ ليعود في المساء وهو يحمل حصيلته من صيد اليوم، كنت طفلاً صغيراً حينها، أنتظر عودة والدي في كل مساء، وأركض مسرعاً نحو مرفأ الصيادين وأجلس هناك، أتامل البحر لحين عودته، وأنا مسحور بجماله وهدوئه، وحين أرى مركبه يقترب؛ كنت أشعر بشعور السعادة والأمان"**

ابتسم ابتسامة دافئة وعاد ليقول: **"إنه شعور طبيعي يشعر به أي طفل، حين يشعر بوجود والده بالقرب منه، ليحميه من كل شيء قد يهدد وجوده في هذه الحياة، وبمجرد أن يرسو قاربه أركض نحوه، واتفحص الحاويات المليئة بأنواع مختلفة من الأسماك، لنتوجه بعدها نحو السوق، ويقوم والدي ببيع ما تمكن من صيده طوال النهار، ومن ثم نعود إلى المنزل.. ولكن"** وصمت بعدها للحظات، وعاد ليكمل: **"ولكن.. في ذلك المساء، كان علي أن أنتظر طويلاً عند المرفأ، وأرى كل الصيادين وهم يعودون، ولكن والدي لم يعد، لم يعد حتى الآن!"**

وضعت جمانة يدها على كتف الرجل، وشدت قبضتها عليها وهي تدرك ما كان يعنيه ذلك.

وأكمل الرجل حديثه: **"لقد سلبني هذا البحر إحساسي بالأمان، لقد سلبني أبي، ومنذ سنوات وأنا أمارس الصيد، لأني أود أن يحس بمثل ما أحسست به، أريد أن يتألم حين أنتزع من أعماقه تلك الأسماك التي لا أشك في أنه يحبها، كما كنت أحب أنا والدي"**

فجأة شعر الرجل بشيء ثقيل يشد صنارته، فتنبه أن هناك سمكة قد علقت بها.

بدأت السمكة تراوغ للخلاص، وهو يسحب الخيط بسرعة تارة، وبهدوء تارة أخرى، حتى لا تتمكن من الهرب.

دامت المسألة لدقائق، وتمكن الرجل بعدها من سحب السمكة.

انتزع الصنارة من فمها وأمسكها بيده، وهي تصارع من أجل أن تتنفس.

عرضها على جمانة وتأملتها.

لقد كانت سمكة صغيرة، ملونة بألوان قزحية جميلة وساحرة.

قال الرجل: **"تبدو جميلة أليس كذلك؟"**

أومأت جمانة برأسها موافقة لما قاله.

قال الرجل: **"أترين كل تلك الألوان الجميلة التي تزينها،**

**وتجعل منها مخلوقاً جميلاً؟، ومع ذلك هي تأكل الأسماك الأصغر منها لتتمكن من العيش، ومن أجل أن تكبر، وتكبر معها فرائسها، لتكون قادرة على إشباعها!، ولكنها تضل أجمل من أن تموت!، إنها تستحق الحياة"**

خطى بضع خطوات نحو حافة الرصيف، والقى بالسمكة في البحر مرة أخرى.

نظرت جمانة إليه بتعجب وهي تسأله: **"لم فعلت ذلك؟ لقد أمضيت وقتاً طويلاً في انتظار أن تحظى بالصيد!"**

ابتسم الرجل وقال: **"لا زالت صغيرة"**

وعاد نحو مكان جلوسه، وبدأ في لملمة عدة الصيد وكأنه يهم بالرحيل.

وبينما هو منشغل بجمع أغراضه سأل جمانة: **"هل تسكنين بالقرب من هنا؟"**

ردت جمانة: **"في الحقيقة نعم، على بعد شارعين من هنا"**

هز الرجل رأسه دون أن يجيب.

قالت جمانة: **"لقد انتقلت لمدينتكم منذ أيام فقط، من أجل الوظيفة، اسمي جمانة، وسعيدة بالتعرف إليك سيدي"**

رد الرجل: **"وأنا رياض"**

انتهى من جمع أغراضه، وقال: **"هل سأراك مجدداً؟"**

ابتسمت جمانة وقالت: **"بالتأكيد، وسيكون ذلك من دواعي سروري سيدي"**

# اللحن الخالد

ودع صديقه الشاعر الذي جاء لزيارته هذا المساء، وعاد زياد وجلس على الأريكة.

تناول الورقة التي تحوي آخر القصائد التي كتبها صديقه الشاعر.

لقد كانت قصيدة لامست أعماق زياد، وطلب من الشاعر أن يسمح له بتلحينها، ورحب صديقه بذلك.

عاد زياد لقراءة القصيدة مرات، ومرات، وكأنها كانت تتحدث عنه بالتحديد، وعن كل ما يدور في أعماقه من لوعات السنين الماضية.

خمسون عام، هي عمر المعاناة التي يعيشها زياد، ولا تزال مستمرة ترافقه إلى الآن.

ورغم العديد من الأغاني التي قام زياد بتلحينها، إلا أن هذه القصيدة كانت مختلفة بشكل ملفت.

كانت أبياتها ترجمة لكل ما يشعر به، وكأن قصة حياته تم اختزالها في ثمان أبيات، وكل بيت منها يحكي ألف قصة من قصصه، وكل بيت منها يوقظ في نفسه ألف ذكرى، وبدأ يتأملها كلمة كلمة.

تناول زياد عوده وضمه إلى صدره، وكأنه يحاول بث الدفء في أوتاره في هذه الليلة الشتوية الباردة، لتخرج الأنغام دافئة، مفعمة بالإحساس.

إنها علاقة روح بتوأمها، روح إنسان وروح نغم، يمتزجان في لحظات التجلي لينتج لحن يثير الشجن.

بدأ بالنقر على عوده بنقرات تائه على مقام الصبا.

نقرات لا زالت حائرة تبحث لنفسها عن البداية، عن هوية، عن سبيل لتلج إلى بحر النغم.

ولكنها عادت لتقف عند البداية، دون أن تتقدم.

فلم تكن تلك النقرات قادرة على البوح بما يشعر به زياد، ولم تكن قادرة على مجاراة كلمات القصيدة من حيث الإحساس.

توقف للحظات، وأشعل سيجارة، وبدأ بتدخينها وهو يتأمل الأبيات.

شعر بأنه لا يزال حائراً ومشتتاً، وغير قادر على الحديث بلغة النغم.

نهض وتوجه نحو المطبخ ليعد لنفسه فنجاناً من القهوة،

علّه يزيد بذلك من قدرته على التركيز.

عاد وجلس على الأريكة، وبدأ في ممارسة أفعال متواترة ما بين نقرات على العود واحتساء القهوة، وعمليات شهيق وزفير تلامس فيها السيجارة شفاهه الصامتة.

فكر في أن يجرب التلحين في هذه المرة على مقام مختلف، ووقع اختياره على مقام الحجاز.

وفي هذه المرة تمكن من تأليف المذهب الأول من الأغنية، وبدأ في ترتيب أنغام المذهب الثاني، ولكنه توقف فجأة وكأنه فقد الإلهام الذي هو بأمس الحاجة إليه ليكمل.

شعر بالضيق لعدم تمكنه من المواصلة، وتلك حالة يعايشها باستمرار، ومرحلة طبيعية يمر بها كل لحن جديد.

ومع مرور الساعات؛ تراكمت فناجين القهوة أمامه على الطاولة، وهو يحاول الحديث عن إحساسه من خلال العود.

وفجأة لمعت في ذهنه فكرة لحن، فتناول العود بسرعة، ونقر بنقرة هابطة على الوتر، شعر وكأنه يلقي بحجر في بركة مشاعره الراكدة، وأتبعها بريشة صاعدة تعبر عن الحركة التي أحدثها ذلك الحجر في قاع البركة الراكدة فتهيّج القاع، وصعدت كل الذكريات نحو السطع.

ابتسم زياد وهو يحدث نفسه: **"نعم.. هذا هو اللحن.. نعم لقد وجدت بداية الطريق الآن، هذا هو اللحن الأنسب لهذه الكلمات"**

وبدأ بدندنة المذهب الأول من الأغنية على مقام العجم.

وواصل النقرات على الأوتار، وهو ينسج اللحن نغمة، نغمة، في حالة من الانفصال عن الواقع، وكأنه يحلق في عالم من الأنغام التي تحلق حوله، وتطوف في أرجاء حديقته المزروعة بالكلمات.

واستمر في تكرار الشطر الأخير، وهو يسلطن بلحن عذب يرثي به حلم قد ضاع ونسي.

حلم الشباب الذي لم يكتمل، وبقي يراود خياله لسنوات، حلم امتزج يوماً بفؤاده الذي كان لا يزال غضاً حينها.

حين جرب الشعور بالحب لأول مرة، وتذوق تلك اللذة التي تنتج عن هذا الشعور.

وعاد يحصي السنوات التي مرت بين ولادة هذه الحلم واليوم، ليجد أنه لا يزال يحتفظ بذكراه طوال خمسة وعشرين عماً، وكأنه ولد بالأمس.

تذكر تلك الصدفة التي جمعته بـ وفاء، حبيبته الأولى التي التقاها صدفة، لينسج من تلك الصدفة قصة عشق امتزجت بروحه.

تذكر ابتسامتها البريئة، وكل ذلك الدفء الذي كان يشع من عينيها، تذكر الأحلام والآمال التي حيكت فصولها بينهما، وهما يخططان لكل يوم في حياتهم المستقبلية.

ذلك الحلم الذي تبخر فجأة، وتحول إلى كابوس مزعج

ضل يطارده، ويتمادى في سلطانه عليه.

وعاد زياد إلى العود، وكأنه أفاق من الحلم، وبدأ يدندن الأبيات التي تليها.

كانت أبيات القصيدة متنوعة في مواضيعها، ولكنها اتفقت على شيء واحد، وهو الإسهاب في وصف الألم الذي قد يسكن النفس البشرية.

وتذكر زياد آماله الزائفة، التي لم تكن سوى وهم خادع حوّل المستحيل إلى الممكن، متجاهلاً واقع الحياة البائسة التي يعيشها، والمرارة التي ولد وهو يتذوق طعمها بين شفاهه.

وتذكر كيف خطفت منه الأيام حبيبته وفاء، ورحلت بها السُبل إلى البعيد المجهول، والذي لا زال يجهله إلى اليوم.

فقد رحلت بعد زفافها مباشرة، ودون أن يعلم إلى أين، تاركة من ورائها كومة من الرسائل، وبقايا من عطرها في ذاكرته.

واستمر زياد في عزف اللحن حتى انتهى منه بالكامل.

وجاء اللحن عذباً، منساباً كانسياب الجداول في مرج غزاه الربيع، فارتدى ثوباً مخملياً باللون الأخضر، المرصع بجواهر لامعة.

عزفه مرات، ومرات، وكأنما يحاول أن تتشبع مشاعره من هذه الأنغام والكلمات، وكأنه تائه في صحراء مقفرة، ساقته أقدامه إلى واحة في وسط تلك الصحراء.

وبدل أن يشرب من نبع الماء الجاري، قفز بجسده في وسط البركة، ليشعر جسده كله بنعيم الارتواء بعد الظمأ.

وفي كل مرة يعيد فيها عزف اللحن، كان يسترجع من ماضيه ذكرى جديدة.

ذكرى تخفّت ما بين قناع النسيان الكاذب، والحضور الذي يملك سطوة مستبد يبالغ في إظهار القسوة.

كان الصبح قد أشرق، وشعر زياد أن بإمكانه أن يغفو الآن، بعد أن أفرغ كل مشاعره في هذا اللحن.

أسند مؤخرة رأسه إلى الأريكة، واحتضن عودة وغفى، غفوة لن يفيق بعدها أبداً.

بعد أن سجل اللحن على هاتفه النقال، وأرسله إلى صديقه الشاعر ليسمعه.

كان لحناً استنزف ما تبقى من روح في جسد زياد.

لحناً صادقاً يفيض بالإحساس، لحناً ولد ليبقى ويخلّد، كحال كل الألحان الصادقة التي خلدتها ذاكرة الجماهير.

# المحطة الأخيرة

نزلت من القطار وهي تسحب خلفها حقيبة ملابسها الثقيلة، التي وضعت فيها جميع احتياجاتها الشخصية التي ستحتاجها خلال فترة اقامتها الطويلة في هذا المكان.

كان الوقت متأخراً، بسبب تأخر القطار عن موعد وصوله بخمس ساعات تقريباً.

فالمحطة كانت خالية من البشر، فلا ركاب مغادرون ولا قادمون، ولا أحد يجلس على كراسي الانتظار القليلة المتوفرة، ولا يتردد في المكان سوى صوت الرياح التي تهب من ناحية الشمال، وتكنس في طريقها أوراق الأشجار المتناثرة على الأرض، وتحملها إلى البعيد، بعيداً عن الأغصان التي منحتها الحياة طوال أشهر الربيع والصيف الماضية، وصوت مزعج يصدر عن أحد أبواب النوافذ التي نسي أحدهم إغلاقها.

ولا يوجد بالمكان سوى مصباح يتيم مثبت على الجدار بجانب أحد أبواب المحطة، وبالكاد يضيء لعدة أمتار من حوله،

دون أن يسمح لأي غريب وافد من استكشاف محيطه الواسع في مكان يجهل تفاصيله.

ليلة خريفية باردة ومظلمة، والأجواء تنبء بأنها ستكون ليلة عاصفة وماطرة.

جرت حقيبتها خلفها، واقتربت من أحد المقاعد هناك وجلست، وهي تشعر بالبرد، فلم تكن ابنة العاصمة الدافئة تتوقع أن تكون درجة الحرارة منخفضة بهذا الشكل في هذه القرية النائية، ولم ترتدي سوى تنورة طويلة وسميكة، وسترة ذات ياقة طويلة تغطي عنقها، وبوت طويل يصل إلى نصف ساقها، إنها أناقة السبعينات من القرن العشرين، التي كانت تبرز بشكل صارخ أنوثة المرأة.

مرت عدة دقائق، وليلى تجلس هناك وحدها، وهي تفكر كيف عليها أن تتصرف الآن بعد أن وصلت إلى هذا المكان، وفي هذا الوقت المتأخر.

في الحقيقة، لم يكن الوقت متأخراً كثيراً، فلا تزال الساعة تشير إلى التاسعة، ولكن من عادة أهل مثل هذه القرى الصغيرة النوم باكراً، خاصة في مثل هذه الليالي العاصفة، ومن الطبيعي ألا تجد أحداً في المكان، أو أن تجد أحداً بانتظارها في هذه الأجواء، وبعد أن تأخر القطار عن موعد وصوله أصلاً.

نظرت ليلى يميناً لتلمح ضوء مصباح خافت، لم تنتبه لوجوده سابقاً، ولكن حين أمعنت النظر إليه، لاحظت أنه كان يسير مقترباً منها ببطء، ظلت ليلى تراقبه حتى تبين لها أنه مصباح

يحمله رجل يعتمر قبعة رسمية على رأسه، وأدركت أنه لابد وأن يكون أحد موظفي المحطة.

اقترب منها الرجل وألقى عليها التحية، نظرت نحوه ليلى وتأملت ملامحه بالقدر الذي سمح لها ضوء المصباح الخافت برؤيته.

كان رجلاً كبيراً بالسن، يبدو عليه أنه قد تجاوز الستين من عمره، بلحية بيضاء كثيفة، وملامح دافئة، شعرت ليلى للحظات بشعور طفلة مفقودة تجلس وحدها في مكان تشعر فيه بالوحشة، وقد جاء الآن رجل ليعيدها إلى بيتها، وإلى حضن والدتها.

ردت ليلى عليه التحية، وبادر الرجل بسؤالها **"لابد وأنك معلمة المدرسة الجديدة؟"**

أجابت ليلى بأنها هي بالفعل، قال الرجل: **"في الحقيقة لقد كان مدير المدرسة هنا بانتظارك، ولكن القطار تأخر عن موعده كثيراً، وحين بدأ الجو يسوء اضطر للمغادرة"**

مد يده باتجاه حقيبتها وبدأ بسحبها وهو يطلب منها أن تلحق به، فلا يجدر بها الجلوس هنا وحيدة، في هذه الأجواء.

سارت ليلى خلفه وهو يسير ببطء، حتى بلغا باباً في أحد جوانب المحطة، فتح الرجل الباب وطلب منها الدخول.

كان منزلاً صغيراً، بسيطاً ومتواضعاً، يضم القليل من قطع الأثاث الضرورية لسكن أي أحد، ومدفئة حطب صغيرة، تكفي لتدفئة المكان.

جلست على المقعد، ووضعت حقيبة يدها على الطاولة، وارخت ظهرها إلى الخلف، وكأنها أخيراً بدأت تشعر بقليل من الراحة والأمان.

وضع الرجل قبعته جانباً، وسار إلى أحد أطراف الغرفة، وقام بإشعال مصباح آخر، لتتمكن ليلى بعدها من رؤية ملامحه بشكل واضح أخيراً، ولم تكن مخطئة، فهو رجل قد تجاوز الستين، ولكن قسماته الآن بدت أكثر دفئاً بعد أن تمكنت من رؤيتها بشكل أوضح، وشعره الأبيض الكثيف والمتموج يمنحه كل هذا الوقار.

خرج الرجل خارجاً للحظات، وعاد وهو يحمل في يده كومة من قطع الحطب، ووضعها داخل المدفئة.

بدأت رائحة خشب الصنوبر المحترقة تبعث رائحتها الجميلة في المكان، وتصدر فرقعاتها اللطيفة.

قال لها الرجل بأنه سيقوم بإعداد كوب من الشاي لها؛ ليشعرها بالدفء، قبل أن يبدأ بإعداد وجبة العشاء.

ابتسمت ليلى ابتسامة هادئة وهي تشكره على لطفه.

أخذت ليلى تتجول بنظرها في المكان، لم تكن الغرفة تختلف كثيراً عن تصوراتها المسبقة عن المنازل الريفية، فالأثاث بسيط، ويفتقر إلى كل ذلك التكلّف الذي تتسم به بيوت العاصمة، والجدران عارية من أي صور أو لوحات، ولا مزيد من التحف التي تزين زوايا الغرفة، مجرد ستارة بسيطة مشغولة الأطراف تحجب النافذة، وسجادة مفعمة بالألوان

تغطي جزءاً من الأرضية.

وبنظرة واحدة كان بإمكان أي زائر أن يلم بمحتويات المنزل كله، بما في ذلك أواني المطبخ الذي كان في أحد جوانب الغرفة.

بدأ المطر ينهمر، ويعزف ترانيمه الهادئة على كل الأسطح التي يلامسها بالخارج.

يتساقط مسرعاً وكأنه يشتاق لعناق الأرض التي ستتمكن بعض قطراته من العودة والاستقرار في رحمها، بينما ستجري قطرات أخرى مسرعة نحو أرض بعيدة، تبحث عن سبيل لبلوغ البحر الشاسع، قصة تلك القطرة من المطر تبدأ هنا، ولكنها تنهي في مكان آخر.

انتهى الرجل من إعداد كوب الشاي، وعاد للجلوس على الكرسي المقابل لها، أخرج من جيبه غليونه الخشبي، وانهمك في إعداده للحظات، أشعل شرارة من عود ثقاب، ومن ثم أشعل التبغ، وبدأ ينفث دخانه عالياً، وكأنه انتبه فجأة؛ فضحك ضحكة خجولة وقال: **"أعتذر منك، نسيت أن أخبرك من أكون، وما اسمي، أنا آمر المحطة، وفي الحقيقة الموظف الوحيد بها، واسمي محمود"**

ردت ليلى: **"تشرفت بلقائك يا عم محمود"**

أخذ العم محمود نفساً أخر من غليونه ونفث دخانه وهو يقول: **"لقد كان توقيت وصولك سيئاً، ولكني آمل بأن تقضي أياماً جميلة في قريتنا، أنا واثق من ذلك"**

ردت ليلى باستياء: **"لا أظن ذلك يا عم محمود"**

ضحك العم محمود ضحكة مشاكسة وهو يقول: **"لا تستعجلي حكمك يا ابنتي، فأنت لم تري من القرية سوى هذه المحطة حتى الآن"**

احتسى قليلاً من الشاي، وعاد ليقول: **"ربما أدرك ما تشعرين به الآن، فأنت ابنة المدينة، ولا يمكنك الانسجام سريعاً مع حياة الريف الهادئة، لقد شعرت بنفس شعورك هذا حين قدمت إلى هنا منذ ٤٠ عاماً"**

نظرت إليه ليلى وهي تسأل: **"ألست من أهل هذه القرية!"**

أجاب العم محمود: **"في الحقيقة لا، فأنا أيضاً ولدت بالعاصمة، وقضيت فيها طفولتي وجانباً من شبابي، حتى اندلعت الحرب، وحينها تطوعت في الجيش برتبة ملازم، وكنت ضمن الكتيبة التي أوكل إليها الدفاع عن هذه المنطقة"** صمت العم محمود للحظة، ثم ضحك وهو يقول: **"حين وصلت إلى هنا، شعرت بشعور كئيب، فلم يكن هناك أي شيء مما اعتدت على وجوده في المدينة، لقد كنت شاباً مفعماً بالنشاط والحيوية، أقضي يومي متسكعاً مع الأصدقاء في المقاهي، والمسارح ودور السينما، ولم أعتدت نمط الحياة الهادئ أبداً، خاصة أن المعارك كانت تدور بعيداً عن هنا، ولم تشارك كتيبتنا في أي معركة حقيقة"**

أومأت ليلى برأسها، وهي تود القول بأنها تتابع حديث العم محمود باهتمام.

وأكمل حديثه: **"لم يكن هنا سوى عدد قليل من البيوت، وبعض الحقول التي تحيط بها، ومحل بقالة واحد يبيع القليل من المواد التي لم تكن تلبي احتياجاتنا، ولكننا كنا مضطرين لزيارته دائماً، فليس هناك أي محلات أخرى، كان صاحب البقالة رجلاً مسناً، وكانت له ابنة شابة تساعده في العمل"**

سرح العم محمود بخياله قليلاً، وكأنه يستعيد شريط ذكرياته، ويسترجع شعوراً ما، وأكمل: **"لقد تعلقت بها منذ أول مرة رأيتها فيها، لم تكن بذاك الجمال، ولم تكن ذكية بما يكفي، ولكنها كانت نقية بما يكفي، لتثير كل عاطفتي تجاهها، بقيت هنا لعامين إلى أن انتهت الحرب في ١٩٣٨، وجاء وقت الرحيل"**

ابتسم العم محمود ابتسامة عذبة، شفافة، وعاد بجسده إلى الخلف قليلاً وأسند ظهره إلى الكرسي وهو يقول: **"كان من الصعب علي أن أرحل وأتركها، كان من الصعب علي أن أعود مرة أخرى إلى حياة المدينة، بعد أن وجدت هنا في حياة الريف الحرية التي أحتاجها"**

نهض العم محمود من مكانه، وتوجه نحو مطبخه الصغير وهو يقول بأنه سيبدأ بإعداد الطعام.

ظلت ليلى جالسة في مكانها، بينما يعمل العم محمود على إعداد الطعام، ويكمل لها سرد قصته: **"نحن البشر لم نخلق لنعيش داخل صناديق أسمنتيه، يحلوا لنا تسميتها بالبيوت، إننا ننتمي لطين هذه الأرض، لمائها ونسيمها، لكل تلك الكائنات التي تنمو وتعيش دون قوانين وقيود تكبل مسيرتها، وتطلعها نحو الحياة، لتلك النباتات التي تمد جذورها عميقاً في التراب**

**دون أن يرسم لها أحدهم حدوداً، وترسل أغصانها عالياً في السماء وفي كل اتجاه، دون أن يكسرها أحدهم بحجة أنها تسد الطريق، نحن بحاجة لأن نسمح لظلام الليل بأن يمتد ليتغلغل داخل أجسادنا دون أن نقمعه بالنور، وأن نجول ببصرنا ليلاً في السماء لنراقب النجوم التي تتناثر بعشوائية بالغة، لتكسر الرتابة"**

كانت رائحة اللحم الذي يقوم بإعداده العم محمود بدأت بالانتشار، وكانت ليلى تتابع طريقة إعداده للطعام لتدرك بأنها أمام طاهي محترف، فأرادت ممازحته بالقول: **"يبدوا أنني سأحظى بوجبة عشاء فاخرة لهذه الليلة!"**

ضحك العم محمود وسألها إن كانت تجيد الطبخ بدورها؟

ردت ليلى بسخرية، وهي تخبره بأنها أسوأ طاهية طعام يمكن أن يقابلها.

في هذه الأثناء، بدأ صوت المطر يهدأ، وصوت الرياح يخفت، ولم يعد هناك سوى صوت اللحم الآخذ في النضوج على المقلاة.

طلبت منه ليلى أن يكمل لها سرد قصته.

العم محمود: **"حسناً.. كان من المستحيل أن أترك نعيمة ابنة البقال بعد الآن، وبالفعل تقدمت لخطبتها، ووافق والدها على الفور، وبعدها تقدمت بطلب تسريحي من الجيش، وفضلت البقاء هنا، حتى حصلت على عملي هذا في هذه المحطة"**

سألته ليلى: **"وكم أنجبتم من الأبناء؟"**

رد العم محمود: **"في الحقيقة لم تكن نعيمة قادرة على الإنجاب"**

ليلى: **"أعتذر عن سؤالي هذا يا عم محمود"**

العم محمود: **"ليس هناك ما يستدعي الاعتذار، فلو كان الأمر كما تظنين لفكرت بالزواج بأخرى، ولكن كان من الأصعب علي أن أتسبب لها بأي ألم"**

التفت إليها العم محمود وقال: **"المرأة وطن للرجل يا ابنتي.. وأنا جعلت من نعيمة رحمها الله وطني، وهي توجتني ملكاً عليه"**

ابتسمت ليلى وهي تقول: **"يا لها من قصة رومنسية!"** ثم صمتت للحظات وعادت لتسأل**: "تُرى.. هل لا يزال هناك حب من هذا النوع!"**

سمعت ليلى صوت عربة تتوقف بالقرب من المنزل، وما هي سوى لحظات حتى قرع أحدهم الباب.

فتح العم محمود الباب، ورحب بمن جاء ودعاه للدخول.

دخل شاب متوسط الطول، يرتدي معطفاً سميكاً، ويعتمر قبعة على رأسه، وبمجرد أن نظر إلى ليلى قال لها: **"الحمدلله على سلامتك، أعتذر أني لم أكن باستقبالك، فقد تأخر القطار، وظننا أنه لن يأتي الليلة بسبب سوء الأحوال الجوية"**

تساءلت ليلى في نفسها ترى من يكون!، ولم يتركها العم محمود في حيرتها طويلاً وقال: **"أقدم لك الأستاذ مسعود.. مدير المدرسة"**

مسعود: **"لقت انتظرت حتى توقف المطر لكي آتي واطمئن على وصولك"**

ضحكت ليلى وهي تقول: **"لقد ظننت أنه سيكون رجلاً كبيراً بالسن، حين أخبرتني أن مدير المدرسة كان بانتظاري!"**

ضحك العم محمود وهو يقول: **"أوه يا ابنتي، أنه الأستاذ مسعود، مدير المدرسة، والمعلم الوحيد بها"**

بدت ملامح التعجب على وجه ليلى وتساءلت: **"ألا يوجد بالمدرسة سوى معلم واحد!"**

مسعود: **"في الحقيقة نعم، وأنت هي أول معلمة تصل للقرية"**

بدت علامات الاستياء واضحة على ملامح ليلى، وبدأت تفكر في أن الواقع قد يكون أسوأ مما كانت تظنه هنا، فعدم وجود معلمين أو معلمات آخرين بالمدرسة، يعني بالنسبة لها مزيداً من الملل والرتابة، وكيف لها أن تقضي الوقت هنا وحدها في هذه القرية، التي لا تزال تجهل كل شيء عنها.

التفتت نحو الأستاذ مسعود وسألته: **"لقد أخبروني هناك بالعاصمة بأنك ستتولى مهمة تأمين سكن ملائم لي، فأين سأقيم؟"**

مسعود: **"لقد هيأت لك سكناً بجانب منزل الخالة أم خديجة، هو عبارة عن بيت صغير ولكنه جميل، كما أن هناك بئر ماء بجانب المنزل"**

ردت ليلى بنبرة صوت عصبية، وهي تضع يدها على رأسها **"يا إلاهي.. ما ذا تعني بوجود البئر القريبة!، هل يعني ذلك أني سأحتاج لنقل الماء من البئر إلى المنزل كل يوم؟!"**

رد مسعود بارتباك، وهو يشعر بأن ليلى استاءت من الأمر **"لا عليك، سأعمل على تكليف أحدهم للقيام بالأمر بدلاً عنك"**

وضعت ليلى إصبعها على شفتها وضغطت عليها بقوة، وأخذت تقضمها بأسنانها بعصبية وتوتر.

اقترب العم محمود، وبدأ بوضع أطباق الطعام أمام ليلى ومسعود على الطاولة، وهو يمازح مسعود بالقول: **"حماتك تحبك، حسناً فعلت بقدومك الآن لتشاركنا الطعام"**

ضحك الأستاذ مسعود وهو يقول: **"تعلم أنه ليس لدي حماة بعد لتحبني، أو حتى تكرهني"**

طلب العم محمود من ليلي أن تمد يدها وتبدأ بتناول طعامها.

بدأت ليلى بتناول الطعام في صمت، وهي تشعر بالكثير من الاستياء، فهذه التجربة لا تبشر بخير منذ بدايتها، منذ أن وصلت إلى هذه المحطة الأشبه بالمهجورة، وجلست وحيدة في مثل هذه الليلة العاصفة والماطرة، والمدرسة التي لا يوجد بها سوى هي ومعلم آخر، وذاك المنزل الذي أعد لإقامتها، والذي يفتقر لأبسط الأمور التي اعتادت على وجودها.

فرغت ليلى من تناول طعامها ونهضت من مكانها وتوجهت نحو النافذة، فتحتها وبدأت تنظر إلى الخارج، رأت قمراً مكتملاً يظهر في الأفق، بعد أن انقشعت الغيوم، وتوقف هطول المطر، كان بدراً كاملاً ينير قمم الجبال البعيدة، وصوت قطرات المطر التي كانت لا تزال تتشبث بأوراق الشجر وسطح المنزل، تصدر صوت نقرات لطيفة وهي تسقط على الأرض، أخذت نفساً عميقاً، لتتسلل نسمة باردة، لطيفة، إلى رئتها، نسمة هواء تحمل معها رائحة العشب، والأرض المبللة، وكأنها جرعة من مسكن الآلام لمن يعاني من قسوة الوجع.

استأذنت من العم محمود بالخروج قليلاً، فتحت باب المنزل، ومشت عدة خطوات نحو الخارج، كانت هناك أمامها تقف عربة خشبية مشدودة إلى حصان، أدركت انها عربة الأستاذ مسعود، مشت عدة خطوات أخرى، شعرت بأنها ترغب بالاقتراب من الحصان أكثر، وهي تسأل نفسها، ترا هل سيعضني؟ هل سيباغتني بركلة من قدمه الخلفية ليوقظني من هذا الكابوس الذي أشعر بأني محتجزة بداخلة.

ولكنها بدأت تقترب منه أكثر، وأكثر، حتى أصبحت أمامه، قرّب الحصان أنفه منها، بدأ يشم رائحتها، وكأنه هو الآخر يرغب في التعرف إليها، مدت يدها ومسحت على جبينه، شعرت بملمسه، وشعرت بدفء جسده على راحة يدها، ابتسمت وهي تقول لنفسها: **"لا يبدوا لي أنه كائن يمكنه أن يتسبب لي بأذى!"** داعبت خصلات شعره المنسدلة على جبينه، بينما كان هو يمسح بخده على كتفها، شعرت بقدر من الألفة بينها وبينه.

نظرت نحو السماء، أدهشها منظر النجوم المتناثرة التي لم يكن بإمكانها يوماً رؤيتها بهذا السطوع في سماء مدينتها!، نظرت تحت قدميها، إلى تلك الحجارة التي تكسوا الأرض، وإلى كل تلك الأعشاب التي تتسلل من بين الفجوات الموجودة بين حجر وآخر.

بدأت ليلى تبتعد أكثر، بالقدر الذي سمح لها ضوء المنزل الخافت بالرؤية، وقفت أمام خن دجاج، نظرت إلى داخلها لترى عدداً منها تنام ملتصقة ببعضها، لتمنح كل واحدة منها الدفء للأخرى، هبت نسمة باردة لطيفة، فتحت ليلى ذراعيها وكأنها ترغب في أن يتغلغل النسيم إلى داخلها، أن يمتزج بذرات جسمها، أن يحملها عن الأرض، ويحلق بها وهي ترفرف بذراعيها المفتوحتين، أغمضت عينيها لبرهة، لتفتحها بفزع مرة أخرى حين شعرت بخطوات تقترب من خلفها، التفتت بسرعة، لترى الأستاذ مسعود يقف خلفها حاملاً بيده معطفه الثقيل، مده نحوها وهو يقول: **"ربما عليك أن تضعيه على كتفك، فلا تأمني غدر تلك النسمات اللطيفة القادرة على أن تطرحك على الفراش مريضة لأيام"**

تناولت منه المعطف ووضعته على كتفها، مشت عدة خطوات نحو صخرة كبيرة وجلست فوقها وهي تقول: **"لم يسبق لي أن رأيت سماء الليل بهذا الجمال، أنه مشهد فاتن، يجعلك تسرح بخيالك في ذلك الفضاء الذي تجهل ما بعده، مساحات لا متناهية، أبديه، أجرام سماوية هائلة معلقة في الفراغ، تبدو لي كذرة من مكاني هذا وانا أنظر إليها!"**

رد الأستاذ مسعود: **"لقد أكملت تعليمي الجامعي بالعاصمة،**

**وبقيت هناك لمدة تزيد عن الأربع سنوات، في تلك السنوات كنت أشتاق إلى هنا، حيث ولدت، حيث سكنت، حيث كنت أركض بين الحقول دون أن يعترض طريقي جدار، وتوقفني عن الركض إشارة مرور حمراء، هنا حيث يعرفني الجميع، ويعرف من أكون، يعرف حقيقتي، يتقبل عفويتي، سذاجتي التي أبديها أحياناً، دون أن أكون بحاجة لمزيد من التبرير، دون أن أكون بحاجة لأن أكذب، أو أتصنع"**

سألته ليلى: **"ألم يكن من الأجدر بك البقاء هناك والبحث عن فرصة عمل أفضل!"**

مسعود: **"كان من المستحيل أن أضحي بحريتي هذه من أجل وظيفة، وأن أدفع المال من أجل أن أسجن نفسي في منزل سيء التهوية، أن أكذب من أجل أن أحظى برفقة، أن أربط عنقي بربطة تخنقني من أجل أن أتماهى مع المشهد العام!"**

أنهى مسعود كلامه، وسمع الاثنان صوت العم محمود وهو يدعوهم للدخول إلى المنزل لشرب الشاي.

كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً حين فرغ الجميع من شرب كوب الشاي الخاص به.

نهض العم محمود من مكانه وتوجه نحو سريره، أسند ظهره إلى السرير وغط في النوم، أو ربما تظاهر بذلك.

حملت ليلى كرسيها ووضعته بالقرب من المدفئة، وجلست هناك، وأقترب الأستاذ مسعود ووضع كرسيه أمامها، وبدءا يتبادلان الأحاديث.

مضت عدة ساعات، وليلى تجلس وتتبادل الأحاديث مع مسعود، والعم محمود استيقظ خلالها لعدة مرات، وفي كل مرة كان يفتح عينه فيها كان ينظر إلى ليلى، ليجدها تبتسم وتلاعب خصلات شعرها بيدها، وهي تحدق في مسعود، فيبتسم العم محمود هو الآخر ويعود إلى النوم.

بدأ نور الصباح يتسلل من خلال النافذة، ويفصح عن قدومه، بينما نار المدفئة كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد هذه الليلة الخريفية الطويلة.

سمعت ليلى صياح الديك، ضحكت وهي تسأل الأستاذ محمود **"أهو يخبرنا بقدوم الصبح؟!"**

نهضت من كرسيها وأسرعت نحو الباب وهي تقول: **"أريد أن أراه وهو يفعل ذلك"**

خرجت وهي تركض نحو خن الدجاج، لحقها مسعود، ووقفت ليلى تتابع الديك وهو يقف في نقطة مرتفعة داخل الخن، وينفض جناحية ويصيح، نظرت إلى أحد زوايا الخن، رأت عدداً من البيضات، ابتسمت، عبرت لمسعود عن رغبتها في الدخول إلى داخل الخن والتقاط البيض، سألت بشيء من الارتباك، هل ستمانع الدجاجات في ذلك**!؟** هل ستعضني**!** ضحك مسعود وأخبرها بأن دخولها إلى الداخل سيكون كافياً لإفزاعهم وابتعادهم عنها.

ركضت إلى الداخل، التقطت البيض بيدها، خرجت وهي تضحك وتقول: **"بيض طازج، أتوق لتذوق طعمه"**

عاد الاثنان إلى المنزل، وشعر العم محمود بدخولهم واستيقظ من نومه.

أعدا وجبة الفطور من ذلك البيض، وجلس الجميع حول المائدة لتناول الطعام.

حان وقت الرحيل، لتتوجه ليلى لرؤية منزلها الجديد، ورؤية القرية، والمدرسة.

جلس مسعود في مقدمة العربة، بينما حاولت ليلى الصعود إلى العربة دون أن تتمكن من فعل ذلك، مد العم محمود يده وساعدها على الصعود، جلست ليلى في مؤخرة العربة، وهي تنظر في وجه العم محمود، ابتسمت، وابتسم لها، شكرته بلطف على استضافتها في منزله، وأومأ لها برأسه، همست له ليلى: **"ليس وسيماً بما يكفي، ولا ذكياً بما يكفي، ولكنه نقي بما فيه الكفاية"**

فهم العم محمود غايتها.

بدأت العربة بالسير، وهو يقف ويراقب وجه ليلى المبتسم وهي تبتعد.

# راديو

كانت تحب الجلوس عند نافذة غرفتها، وتنظر إلى الخارج، تتأمل تلك الحياة التي تسير من حولها، تلك الطبيعة المتغيرة، المتجددة، الأغصان التي تنمو من تفرعات الأشجار المسنّة، والتي تأبى الفناء، فتعبّر عن تعلقها بالحياة، من خلال الأغصان التي تمدها باستمرار، والأوراق التي تتفتح كل يوم.

تتأمل تشكيلات الغيوم، وعبورها الصامت والمهيب، ورحيلها المستمر، وكأنها هاربة، متمرّدة، ثائرة، لا تكترث، ولا تساءل إلى أين؟ كل ما يهمها هو أن تحلق، أن تسبح، أن يلامسها النسيم، ويحملها إلى مكان جديد، مكان لم تزره من قبل، إلى أرض تنتظر وصولها، وحينها فقط، تستسلم، وتتلاشى، لتمتزج مع طين تلك الأرض، لتمنح الحياة لبذرة أخرى.

كانت تجلس هناك صباحاً، تراقب العابرين، الدائرين في دوامة هذه الحياة، الباحثين عن الأمل، وفي كل خطوة يخطونها؛ حلم.

تراقبهم وهم يمشون صامتين، شاردين، مبرمجين،

تماماً كقطار يسير على قضبان حديدية، لا يملك حق اختيار الطريق، يمشون وحسب، نحو وجهتهم التي اعتادوا السير إليها كل صباح، دون أن يتطلب الأمر منهم التركيز في الطريق، فهم لن يتيهوا فيه، حتى وإن كان فكرهم سارحاً في مكان آخر، غارقاً في ماضيهم، أو حاضرهم، أو منشغلين في الإجابة عن أسئلة غدهم.

تراقب ذلك الأب الذي يسير ممسكاً بيد ابنه الصغير، ليوصله إلى المدرسة، يحلم بأن يرى ابنه وقد كبر يوماً، ربما يحقق ما لم يتمكن هو من تحقيقه، تتأمل ملابس الطفل السميكة، وكيف اعتنت أمّه بها، خوفاً من أن ينهش البرد جسد طفلها الصغير، وتنتظر أن يعود إليها، يهرول نحوها ويحتضنها، ويقبل جبينها.

وفي المساء يعودون من نفس الطريق، وهم لا زالوا يطرحون نفس الأسئلة، التي تأجلت الإجابة عليها ليوم آخر.

وأثناء الليل تجلس هناك، تتنفس من الليل هدوءه وصمته، سكونه، تراقب بيوت الحي، تلك النوافذ التي يشع مع خلفها ضوء خجول.

تتأمل في كل نافذة، وتتساءل من يا تُرا يسكن خلفها، من يحلم هناك وحده، يبكي وحده، يسترجع ذكرياته، يعانق خيباته، يتعلق بأمل، يشتكي في سجدة؟

كانت نهال شابة في نهاية العقد الثالث من عمرها، تعيش في هذا المنزل برفقة والدتها المسنّة، تلجأ إلى هذه النافذة بعد أن تنتهي من أعمالها المنزلية، وتجلس بجوارها، تحيك

أو تطرز بعض الأزهار على قطعة قماش، وبجانبها تضع جهاز الراديو، تقلب في موجاته، تنتقل من محطة لأخرى.

كانت تشعر بمتعة حين تحرّك مؤشر الراديو بين الإذاعات المختلفة، وينبعث صوت إذاعة فجأة، وهي تبث أغنية، أو تستمع لصوت شخص يتحدث.

تلك الأصوات القادمة من مكان ما، على سطح هذه الكرة، التي نسميها الأرض.

لغات غريبة عنها، لا يمكنها فهمها، ولكنها كانت تحب أن تنصت إليهم، وهي تتساءل، تُرا ما ذا يقول! أهو يحكي قصة؟ أم يقرأ رسالة؟ أم يتحدث في شأن السياسة، والحرب والسلام! أم يسكّن أوجاع المهمّشين السائرين على أرصفة الحياة؟

ما كان يهمها هو أن تنصت، تنصت فقط، لإنسان يتحدث، أن تنصت لصوت العالم.

فالكلام الصادر عن البشر؛ إما أن يكون فكرة، أو شعور، فالكلام تعبير عن شيء ما، يدور في أعماق الإنسان، ويريد أن يشاركه مع الآخرين، وهي تريد أن تنصت إليه، تنصت فقط.

وحين تجد إذاعة تبث أغنية، كانت تتوقف عندها للحظات، تستمتع إلى لحنها، إلى كل نغمة، ما ذا تريد أن تقول، لا يهم إن لم تفهم الكلمات، فالموسيقى لغة متجرّدة من الكلمات، قادرة على أن تتحدث إلى كل شعوب الأرض، بلغة واحدة.

ذات مساء، أنهت نهال كل أعمالها في المنزل، ولجأت بعدها

إلى نافذتها، إلى جهاز الراديو الخاص بها، وبدأت تحرّك مؤشر البحث، والأصوات تنبعث منه، ضلت تبحث عن شيء، شيء ما قد يلامس قلبها، صوت قد يجبرها على أن تتوقف عنده للحظات، عن كلمة، أو لحن.

إلا أن سمعت أحدهم يقول: **"أهلاً بكم أعزّائي المستمعين، في الحلقة الأولى من برنامج (كلمات) والذي سيبث كل ليلة، في نفس الموعد في تمام الساعة الـ ١١ مساء، وسأكون برفقتكم كل ليلة لمدة ساعة كاملة، أنا محدثكم (ميشيل نظيم)"**

كان المذيع يتحدث بالعربية، بلغة تفهمها، بلغة هي قادرة على التعبير بها، وكان صوته دافئاً، عذباً، رجولياً بما يكفي، لتتوقف عنده، لتنصت إليه.

جلست نهال لمدة ساعة تستمتع إلى حديثه، وهو يلقي بعضاً من الأشعار، والخواطر.

وفي نهاية الحلقة، دعا المذيع المستمعين لإرسال شيء من كتاباتهم الخاصة، ليتم بثها في الحلقات القادمة، وقال: **"هذا البرنامج، مخصص ليبث كلماتكم، مشاعركم، أحلامكم، سأنتظر رسائلكم ابتداء من هذه الليلة، تصبحون على خير"**

همست نهال وهي تردد: **"كلماتي، مشاعري، أحلامي!"** وبدأت تسأل نفسها: **"هل سيكون ذلك ممكناً، هل يمكنها أن تكتب كلماتها؟ مشاعرها؟، هل سينصت العالم كله لها، هل جاء دورها الآن لكي تتحدث هي، وينصت العالم!"**

نهضت بسرعة من فوق الأريكة، توجهت نحو مكتبها الصغير

الموجود في أحد أطراف الغرفة، أخرجت قلماً، وتناولت ورقة، وعادت لتجلس بجوار النافذة.

ولكنها توقفت للحظة، وهي تتساءل: **"ماذا سأكتب! ما الذي أود قوله، وأرغب في أن يسمعه الآخرون؟"**

بقيت على تلك الحال لبعض الوقت، وهي تحاول أن تكتب أي كلمة، وبمجرد أن تخطر ببالها كلمة، تهم بكتابتها، ولكنها كانت تعود وتتردد، وتفكر في بداية أخرى.

تساءلت: **"لم أكن أدرك قبل هذه اللحظة، صعوبة أن يكتب أحدنا كلمة! كنت أظن أن البوح ببضع كلمات أمر سهل، بسهولة أي حوار نجريه مع أحدهم، ولكن حين يتعلق الأمر بالشعور، يغدو كل شيء معقّداً، مركّباً، خوفاً من أن نريق مشاعرنا بطريقة سطحية، عقيمة، لا تعكس حقيقتنا"**

ولكن بمجرد أن كتبت كلمة في بداية السطر، لم تشعر بعدها بأنها من كانت تحرك يدها، إنما كان القلم هو من يسير بشكل منتظم على السطور، يركض، بينما تحاول هي اللحاق به، ينفث الحبر بغزارة، بسخاء.

كانت تشعر بالتعب، وجبهتها تتعرق، وكأنها كانت تركض بالفعل، لتلحق بالقلم، تكتب، وتمسح جبينها بأطراف كمّها، تبعد خصلات شعرها التي تنسدل، وتتناثر على جانب رأسها، لتعيدها بلمسة رقيقة إلى خلف أذنها.

انتهت نهال من الكتابة، وأعادت قراءة ما كتبت لعدة مرّات، ثم عادت لتكتبها من جديد على ورقة أخرى، بشكل منمق،

بحروف واضحة، فلا يمكنها أن تقبل أن تكون مبهمة، أو مشوهة، أرادت أن تكون تلك الحروف جميلة، رقيقة، منسابة بلطف فوق السطور، تماماً كالمشاعر التي أرادت أن تعبّر عنها، ووقعت في نهايتها باسم (سيدة المساء)

طوت الورقة بعد أن انتهت، ووضعها فوق الراديو، وخلدت إلى النوم.

في الصباح، استعدت للخروج، وضعت الورقة داخل الظرف، أغلقته جيداً، وطبعت عليه قبلة، همست بلطف: **"أنا هنا أيها العالم، داخل هذا الظرف، بين السطور، على حافة كل كسرة، متعلقة بكل ضمة، تائهة في فلك كل علامة استفهام، مفعمة بالأمل عند كل نقطة في نهاية سطر"**

توجهت نحو المرآة، نظرت إلى نفسها، حدقت في عينيها، نظرت إلى عطورها الموجودة هناك، تناولت أكثرها قرباً من قلبها -رشة عطر رقيقة على الظرف- ابتسمت، قالت: **"ها هي نهال الآن، قد اكتملت، إحساسها، كلماته، رائحتها، كل شيء منها"**

توجهت نحو مكتب البريد، وطلبت إرسال الرسالة إلى عنوان الإذاعة.

تناول موظف البريد الرسالة من يدها، ألصق عليها طابعاً، ومن ثم هوى عليها بختم كبير، كتب عليه (بريد جوي)

همست نهال وهي تنظر إلى رسالتها، وهي توضع في سلة، مع الكثير من الرسائل الأخرى هناك، وقالت: **"وداعاً يا أنا،**

**سأنتظر أن تحدثيني قريباً عبر الأثير"**

كانت نهال تجلس كل ليلة بجانب نافذتها، تستمع إلى صوت المذيع (ميشيل نظيم) وهو يقرأ الرسائل التي وصلت إلى البرنامج، وقلبها تتسارع نبضاته؛ كلما انتهى من قراءة واحدة، وهي تقول: **"ربما تكون رسالتي هي التالية!"**

انتظرت عدة أيام، وهي تتأمل في أن تكون رسالتها قد وصلت، وأن نهال ستحدثها قريباً.

وفي الليلة العاشرة، كانت نهال كعادتها تجلس عند النافذة، تستمع للبرنامج، حين قال المذيع: **"يا الله، ما هذه الرائحة الساحرة! أشعر وأن هناك روح أنثى توشك أن تنبعث من داخل هذا الظرف، بمجرد أن افتحه، أخشى أن أضعف أمام بريقها، أن أستسلم أمام حضورها"**

كانت نهال تستمتع إلى تلك الكلمات، وهي تتساءل: **"أهي نهال؟ هل سأستمع إليها الآن، هل سيستمع إلها العالم كله في هذه اللحظة!"**

بدأ المذيع في قراءة الكلمات، وعندها أدركت نهال أنها رسالتها بالفعل.

أنصتت جيداً، غرقت مع كل كلمة، وحلقت مع كل شعور، حتى انتهى من قراءتها كاملة، ومن ثم اتبعها بتلميح رقيق وهو يقول: **"أنا أشعر بحضورك الآن يا سيدة المساء"**

ابتسمت نهال، لتتحول ابتسامتها بعدها إلى قهقهة خجولة، واكتفت بقول: **"شكراً على لطفك"**

شعرت نهال بسعادة غامرة، سرحت بخيالها إلى كل مكان في هذا العالم، تخيلت أن هناك من كان يجلس أمام جهاز الراديو الخاص به، ويستمع إلى كلماتها، ويشعر بوجودها، بإحساسها.

ركضت نحو مكتبها، وجلست هناك، أرادت أن تكتب رسالة أخرى، وتبعث بها إلى البرنامج.

تلك الليلة، بقيت حتى وقت متأخر من الليل، وهي تحاول إنهاء الرسالة، وتعيد صياغة مفرداتها لعدة مرات، حتى شعرت بأنها جميلة بما يكفي، لتعبر عنها.

وفي الصباح، وضعت الرسالة داخل الظرف، طبعت عليها قبلة، ومنحتها رشة من عطرها، وسلمتها لمكتب البريد.

استمرت نهال في إرسال الرسائل إلى البرنامج، على مدى أشهر طويلة، وبات اسمها يتكرر كل بضع حلقات، وتصل رسائل إعجاب إلى البرنامج من المستمعين، بما كانت تكتبه (سيدة المساء)

ولكنها توقفت فجأة عن فعل ذلك، وعلى مدى أسابيع لم يصل إلى البرنامج أي رسالة منها، ولكنها كانت حريصة على الاستماع إلى الحلقة الجديدة كل مساء.

ولكن بعد غيابها الطويل، بدأت تصل رسائل إلى البرنامج من المستمعين، تسأل أين اختفت (سيدة المساء)

وفي أحد المساءات، وبعد قراءة رسالة من أحد المستمعين، والذي كان يطالب فيها (سيدة المساء) بأن تعود لإرسال الرسائل، قال المذيع: **"كل هذا الحب لك أنتِ يا سيدة المساء، لقد ملكتي قلوب المستمعين، دون أن يعرفك أي منا، من أنتِ؟ من تكونين؟ لم اختفيتِ! أرجوكِ عودي، نحن بانتظارك"**

بكت نهال، وهي تسمع تلك الكلمات، وشعرت بعدها بصعوبة في التنفس، ودخلت في نوبة سعال شديدة، أجبرتها على أن تستلقِ على الفراش، في محاولة منها لتهدأ، وبعد معاناة، تمكنت من النوم أخيراً.

في صباح اليوم التالي، قررت أن تكتب رسالة جديدة إلى البرنامج، وبالفعل بدأت بالكتابة، حتى انتهت منها، وبعدها وضعتها في الظرف، ولم تقرّب الظرف من أنفاسها في هذه المرة، وأكتفت برشة عطر، ومن ثم طلبت من ابن جارتها أن يسدي لها هذه الخدمة، وأن يوصل الرسالة لمكتب البريد بدلاً عنها.

ومضت أيام، ونهال تجلس بجوار نافذتها كل مساء، بانتظار قراءة رسالتها.

وبعد عدة أيام، سمعت المذيع يقول:

**"أعزّائي المستمعين، ها هي سيدة المساء تعود إليكم مجدداً، وعطرها يسبق كلماتها، إني أألف هذا العطر، إنه ساحر،**

**رقيق، وطاغٍ في آن، إنه عطر أنثى تسكن في مكان ما على هذه الأرض، ولكن إحساسها قادر على أن يغمر العالم، أن يداعب خيال كل من يستمع إليها، أن يرسمها لوحة بألوان دافئة، بملامح ملائكية، خلف وشاح شفاف منسدل، يرخي بظلال ناعمة على وجهها، ويكسبها ذلك الغموض، وجاذبية الأساطير العتيقة"**

وبعدها، بدأ المذيع بقراءة الرسالة، والتي جاء فيها:

**"مرحباً.. أردتم أن تعرفوا من أكون؟ ألهذا الحد كنتم تهتمون لأمري! حقيقة لا يمكنني التعبير عن سعادتي بذلك.**

**حسناً سأخبركم من أنا، أنا نهال، سيدة المساء، أنثى برائحة الياسمين، فراشة تنتقل ما بين زهرة، وزهرة، وتغفو تحت أوراق البساتين، كالأمل، في دعاء المتعبين، كنغمة، تنبعث من أعماق ناي حزين، أنا أم لم تنجب سوى كلمات، وارضعتها من صدرها إحساس متدفق، وحين كبرت الكلمات؛ كانت بارّة بها، صادقة كصدقها، عذبة كالغدير الذي تنبع منه.**

**اعتذر لانقطاعي الطويل، ولكن ذلك الانقطاع جعلني أدرك حقيقة واحدة، وهي محبتكم لما كنت أكتبه، لم يكن غيابي اختياراً سعيت إليه برغبة، ولكن يؤسفني أن أخبركم أني مصابة بداء السل، وهو الآن في مرحلة متقدمة، ولا أظن أنه سيمهلني الكثير من الوقت.**

**لقد كنت لسنوات، أستمع للراديو، إلى صوت العالم، إلى بشر لا أعرفهم، ولا حتى يمكنني فهمهم، ولكني كنت أشعر بحب كبير تجاههم، لأنهم مثلي، بشر.**

**لقد كنت أتوق لأن يسمعني أحدهم أيضاً، أن يشعر بوجودي، أن يعرف أن هناك من تعيش في مكان ما على وجه هذه الأرض، أنها تتنفس، وإن كانت تفعل ذلك بصعوبة.**

**وأخيراً تحققت أمنيتي، ومن خلال رسائلي، استمع إليّ العالم، أدرك وجودي، حقيقتي، ومن أكون.**

**سأكتفي بهذا القدر من التعريف بنفسي، وأكف عن كتابة المزيد من الرسائل، لأني أشعر أن الكلمات كانت تستنزفني، وأشعر بثقلها بعد كل مرة كنت أكتب فيها، للحد الذي أعاني بعدها من أجل أن أتنفس، وها أنا بت غير قادرة على التنفس، وبدلاً عن ذلك أسعل بشدة، سعلات ممزوجة بالدماء، وكأنها تحاول إخراج كل ما تبقى بالروح من كلمات، بعد أن تقتلها، وتسفك دماءها.**

**سترحل سيدة المساء، ويبقى عطرها، وتبقى كلماتها، ستبقى في خيالكم حية تتنفس، فأطلقوا روحها في مساحاتكم الواسعة، حتى تتمكن من التنفس دون عناء"**

توقيع/ سيدة المساء ١١ أكتوبر ١٩٦٠

صدر للمؤلف

- رواية بعنوان (خريف لأربعة فصول)

- مجموعة مقالات بعنوان (عزف منفرد)

- نصوص أدبية بعنوان (أدم)

**حسابات المؤلف**
**على برامج التواصل الاجتماعي**

Daydream.s.a

Daydream2019

Daydream_s_a

Daydreamsa

Samir alim

كلاسيكيات

حسناً سأخبركم من أنا، أنا نهال، سيدة المساء، أنثى برائحة الياسمين، فراشة تنتقل ما بين زهرة، وزهرة، وتغفو تحت أوراق البساتين، كالأمل، في دعاء المتعبين، كنغمة، تنبعث من أعماق ناي حزين، أنا أم لم تنجب سوى كلمات، وارضعتها من صدرها إحساس متدفق، وحين كبرت الكلمات؛ كانت بارّة بها، صادقة كصدقها، عذبة كالغدير الذي تنبع منه.

دار نشر رقمنة الكتاب العربي-
Stockholm
978-91-89288-66-9